
منصورة عز الدين
أطلس الخفاء
رواية
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
دار الشروق
mohamed khatab

1

كان مراد واثقًا من وجودها هناك.

في مكان غير مرئي أو ملموس، تفصله عنها طبقات متراكمة من اليقظة والنسيان.

بلادٌ وأراضٍ لا تشبه ما يصادفه في الواقع، تزوره متقطعة كما لو أنها العالم في حالته الشذرية، أو الكون وقد استحال نثارًا. كانت تفتنه، لكن لطالما آلمه أنه لا يكاد يُلِمُّ بها - لاحقًا - إلَّا كمشاهد عابرة ومتطايرة في سماء ذاكرته، لا تتيح له رسم خريطة كلية لها.

قبل قليل - مثلًا - رأى نفسه سائرًا في فضاء من حقولٍ مزروعة، وأخرى محروثة في انتظار أن تُزرَع وتُروَى.

على يمينه كرمة كأنها سورٌ ممتدٌ بموازاة الحقول. كانت لتطربه رؤية الأعناب - التي يحبها - لولا أنها بدت جافة لا أثر للخَضَار فيها.

أوجعه قلبه لمعاينة كل هذا اليباس، لكنَّ النباتات اليانعة، في أرضٍ تلوح من بعيد، طمأنته على أن العالم لم يجدب كله بعد. وحدها أشجار الكروم فعلت، وظلت في خلفية ذهنه مثل شِفرة أو علامة.

في لحظة تالية، كان شاهدًا على شخص يركض. لم ينطق الراكض بكلمة، ومع هذا عرف هو الجملة المضمرة: «سوف أذهب إلى الأراضي المنخفضة».

انتهى الجري بوصول الشخص إلى طبقة منخفضة بالفعل، ومغطاة بالنَّجيل، وطأها كما لو كان ينقل قدمه من درجة سلم إلى الدرجة الواقعة أسفلها. وفكَّر مراد - فيما يتابعه - في هولندا، فخطر له أنها حظيت باسمها القديم في لحظة كهذه.

لم يكن هناك بحر في الجوار، ولا من وجود لفكرة التيوليب، فقط حقول لانهائية يسيِّجها - من جانب واحد - بستان عنب خاوٍ على عروشه، يقف مثل رسالة مفادها أن اليباس مستقبل كل شيء حي.

بمجرد انتباهه مما كان يختبره، نظر عبر زجاج النافذة، إلى فرع جهنمية بزهور بنفسجية متوهجة. كان جالسًا على مقعده المفضل بغرفة المعيشة، والستارة الرمادية منزاحة قليلًا عن مكانها، ما سمح لأشعة الشمس بالتسلل إلى الداخل.

تمنَّى لو ظلَّ في عالمه الخفي غير المكتمل حتى الظهيرة. بدا له هذا الصباح أشبه بالنهايات لا بالبدايات كما يُفترَض بالصباحات أن تكون.

من بين ثنايا ذكريات سحيقة، أتاه صوت جدته خديجة:

«صباح الخير يا لُقْمَة طَرِيَّة، يا قمر الزين يا شمس الضَّحِيَّة!»

كانت الأقدر على تدليله وطمأنته؛ لطالما مثَّل مجرد سماع صوتها دواءً شافيًا من كل أسقام روحه. لا يتذكر أنه سمع قط تحية صباح أجمل من تحيتها هذه، حين تكون رائقة البال. أحب شمس الضُّحَى بسبب جدته، وظلَّ يتذكَّرها ويحنُّ إلى أيامها في هذا الوقت من النهار.

قام بصعوبة وخطا نحو المطبخ. على الرغم من إحساس بالخِدر، رفض غسل وجهه طلبًا للانتعاش. حين يمر بإشراقة من إشراقاته، يؤجل الاغتسال ما استطاع. يؤمن بأن الماء إن مَسَّ أي جزء في جسده، سوف يُطرَد بقسوة من عالم تجلياته، ويُترَك منبوذًا غير مأسوف عليه في عراء الواقع المتصحر.

فتح عُلْبَة البُنِّ، ففوجئ بحشرات تشبه السوس، لا تكاد تُرَى لاقتراب لونها من لون المسحوق الداكن الذي اختارته بيتًا لها. مسح عينيه، ودَقَّق النظر، فتأكد من أنه غير واهم. أفرغ العُلْبَة في القمامة، واكتفى بشطيرة جُبْنٍ مع كوب شاي سادة.

لم يعرف ماذا يفعل بيومه تخيفه الإجازات، يتحاشاها ما أمكنه هذا فكر مرة في أن يقترح على مديره أن يسمح له بالعمل يوم عطلته الأسبوعية، لكنه تراجع - في اللحظة الأخيرة - تجنبًا لنظرات الدهشة والاستنكار اكتشف أنه يكره فضول الآخرين وتساؤلاتهم أكثر من كرهه لأيام العطل.

بلا شاغل يشغله، ولا عمل يغرق فيه، وجد نفسه يواجه يوم الجمعة دون درع أو ساتر.

جلس في الشرفة ينهي شطيرة الجُبْن، ويشرب شايه المُر فيما يُقلِّب ما تراءى له للتو على وجوهه كافة بينما يضع كوبه الفارغ على طاولة الخيزران أمامه، برقت في رأسه فكرة إعداد أطلس لجغرافيا تجلياته؛ دفتر يُدَوِّن فيه - بالكلمات والرسوم - وصفًا لكل الأماكن التي تراءت له وتجسدت أمامه على مدار السنوات الأخيرة.

استعاد ذهنه صفاءه على الفور. كان مدركًا لكونه نسي الكثير منها، غير أن هذا لم يثنه عن عزمه حدس بأنه ما إن يبدأ، سوف تنهال عليه ذكريات مطمورة لاستبصارات منسية، وإن لم يحدث هذا، سيكتفي بتدوين ما يتذكره تنازعته مشاعر الحماس والوجل نبع حماسه من رغبته في تخليد استبصاراته كي لا تتبدد وتسقط في هوة العدم، أما الوجل فسببه الرهبة من الخوض في تلك المساحة غير المطروقة. شعر بأنه على أعتاب أرضٍ خطرة، لن تبقى حياته كما كانت، بمجرد الخطو فيها.

ارتدى ملابسه، واتجه إلى المكتبة القريبة. لم تكن قد فتحت بابها بعد. جلس في مقهى مجاور وعيناه معلقتان بمقصده. طلب قهوته السادة وهو يفكر: متى صار الجميع يسمِّي محال بيع الأدوات المكتبية مكتبات؟!

أزعجته الأصوات الواصلة إليه من الطاولات المجاورة، أثقلت أعصابه بثرثراتها الكئيبة عن تردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض سعر الجنيه أمام الدولار، وما ترتب عليه من غلاءٍ فاحش تمنى لو أنه يعيش ويتحرك في عالم لا صوت فيه: لا أحاديث أو همهمات أو صراخ، لا قرقعات ولا ضجيج ولا نباح أو عواء فكر في أنه يمكنه التضحية حتى بموسيقاه وأغنياته المفضلة وبزقزقة العصافير صباحًا في سبيل بلوغ صمتٍ يشبه ذلك الخاص بإشراقاته، فمعظمها يدور في فضاءات انتفت فيها فكرة الصوت من الأساس .

من طفولة سحيقة، داهمته أصوات ذِكْر صوفي وإنشاد ديني مختلطة بابتهالات ورجاءات وجِلة وصراخ أطفال ونداءات باعة جائلين. ضاق صدره بهذا المزيج الضاج، وتضاعف تقديره للسُّكُون.

ترك ورقة مالية على الطاولة، ونهض بسرعة للحاق بصاحب المكتبة. كان الرجل لا يزال يدير المفتاح في القفل، فوقف هو خلفه منتظرًا.

«يا فتَّاح يا عليم، يا رَزَّاق يا كريم»

قال البائع حين انتبه إلى وجوده، ودعاه إلى الداخل. أخبره مراد أنه يريد دفترًا كبيرًا خاليًا من الزخرفة، وراح يبحث عنه بنفسه دون انتظار رد.

كانت الدفاتر، في معظمها، بأغلفة لامعة متعددة الألوان، حد تنفيره من فكرته كلها كاد عزمه على متابعة مشروعه الوليد يُثبَط، غير أنه تجاهل نفوره وواصل بحثه مكوِّمًا كل ما لا ينال رضاه جهة اليمين في النهاية عثر على دفتره المرغوب، بغلافه الرمادي من الورق المقوى. بدا قديمًا إلى درجة لم يكن ليُفاجَأ مراد معها إن فتحه واكتشف أن صفحاته ممتلئة بالكتابة عن آخرها.

لحسن الحظ، كانت الصفحات بيضاء من غير سوء،تنتظره كي يسوِّدها بما يَعِنُّ له. أعاد الدفاتر الملونة إلى أمكنتها السابقة، وقبض على دفتره المختار، متجاهلًا دهشة البائع من ذوقه. دفع الثمن المطلوب وخرج يترنم بمطلع «في الليل لمَّا خِلي».

في غرفة المعيشة، تناول فطيرة بالسكر، اشتراها من مخبز على ناصية شارعه في طريق عودته إلى البيت، لا لشيء سوى أنها كانت الطعام المفضل لأمه، وجلس إلى طاولة رَصَّ فوقها الدفتر وأربعة أقلام حبر: أزرق وأسود وأخضر وأحمر.

لم يعرف من أين يبدأ، فأغمض عينيه محاولًا استعادة استبصارات آفلة، ثم أمسك القلم الأخضر وبدأ في الكتابة وقد عزم على أن يحكي تجلياته بضمير الغائب لا المتكلم فمراد المُستبصِر لا يشبه شخصه الضعيف الفاني، بل هو تجسد أرقى وأعلى وأعلم من ذاته. لكنه سرعان ما غيَّر رأيه، وقرر الكتابة بضمير المتكلم، فلا مسافة تُذكر بين حالين للشخص نفسه، وإشراقاته ينبغي نسبها له وحده.

شارع واحد في أماكن عديدة

كل شيء مغلَّف بغمامة أشبه بالضباب: مبنى مدرستي الأولى، البنايات حولها، والمارة القلائل هنا وهناك، أما الأفق فكان منعدمًا؛ استحال إلى مجرد امتداد معتم.

المدرسة خالية، وفصولها مفتوحة الأبواب، وفي الفناء تقف شجرة المانجو المعمرة بجرمها الهائل أدهشني أنها تبدت لي مثقلة بالثمار، مع أن ذكرياتي عنها تخبرني أني لم أرَ لها ثمارًا قط في الواقع لم أعد حتى أعرف إن كانت الشجرة لاتزال موجودة أم لا! ما أعرفه أنها حاضرة بكثافة أمامي، كأنها أصل حياتي ومبررها.

تأملتُ جذعها، فلمحتُ كونًا بأَسْرِه: نجومًا وأقمارًا وكواكب معتمة وأخرى شفافة أو ملونة، كل منها يدور في فَلَك يخصه وحده، والخلفية بلون رمادي يميل إلى الأزرق السماوي. عالم خالٍ من البشر والحيوان والنبات، فقط أفلاك سماوية في حركة دائبة.

دققتُ النظر في الجذع، فبهت كل شيء واستحال إلى دخان. رفعتُ رأسي إلى أعلى، فأبصرتُ فروع الشجرة وأغصانها لا تزال كما كانت، لكن بفارق وحيد هو أن ثمارها لم تعد مقتصرة على المانجو، بل تعدتها إلى التفاح والموز والعنب والتين وفواكه أخرى لم أصادفها في حياتي من قبل.

وجدتُ المنظر مغويًا بدرجة تفوق قدرتي على الاحتمال، فعزمت على تسلق الجذع الدخاني، وما إن لمسته حتى عاد إلى طبيعته الخشبية وإن أضيفت إليه حراشف وأشواك جرحت ذراعَي وخدشت رقبتي.

عاودتُ النظر إلى الثمار، فاختفتْ، ثم غابتْ الخضرة جررتُ جسدي بعيدًا عن الشجرة، أدرتُ لها ظهري، فبان لي طريق، يشبه الشارع المحتضِن لمدرسة طفولتي، غير أنه خالٍ من البيوت الأليفة القديمة أُستعِيض عنها بأشجار باوباب على الجانبين، يتجلى من خلفها قمرٌ شهيٌ يلمع كالألماس.

أورثتني الأشجار إحساسًا بالتقزم. في المسافة بين الواحدة منها والأخرى، تراءت لي طرقات لانهائية تفصلها مفارق دائرية.

خلال لحظات راح كل شيء يضمحل ويظهر بدلًا منه الشارع القديم كما عرفته في طفولتي، بمعالمه كافة، قبل أن يخفت بدوره وينبثق من أطلاله شارع ٢٦ يوليو بوسط القاهرة، الذي سرعان ما تبَخَّر، ليكشف عن طريق الباوباب والقمر الألماسي مرة أخرى.

ران صمتٌ عميق، وباغتني خاطرٌ مفاده أن هذا الشارع موجود في كل الأماكن تقريبًا، لكنه يتنكر في هيئات عديدة، تختفي فيها أشجار الباوباب وتنهض بدلًا منها بنايات وأبراج أو حتى جبال وناطحات سحاب أو تماثيل ونصب تذكارية.

وأنا وحدي من يحفظ الأصل في قلبه، وحدي من بوسعه تلمسه ورؤية جوهره، مهما بالغ في الاختباء والتسربل بأقنعة وصور مركبة.

عاودتني ذكرى غابرة اختلط عليَّ فيها شارع الطفولة ذاك بشارع ٢٦ يوليو، فأيقنتُ أنهما قرينان ظاهران لطريق الباوباب الخفي. هاجس مشاكس أسرَّ لي بأن هناك جغرافيا أصلية للعالم، مخفية في بِقاع الغفلة، وتتخفى خلف آلاف الصور والأقنعة المنتشرة في شتى أرجاء المعمورة.

حدست بأن هذه الجغرافيا تُمَثِّل العالم الأول الذي وطأتهأقدام آدم وحواء بمجرد نفيهما إلى الأرض، أو ربما تُمَثِّل الجنة نفسها، وتتجلى شذرات منها للمختارين، مثل نثار من ذاكرة جمعية موروثة. حمدت الله وشكرت فضله لأنني أحد هؤلاء المختارين.

شجرة صمغ عند مفترق طرق

الصباح لا يزال ينبلج، لم تعلن الشمس عن حضورها بعد، لكنَّ العتمة انزاحت تاركةً لضوء السَّحَر الملتبس بالغبش مساحة يتمركز فيها. بَلَل الندى يُرَطِّب كل شيء، والعالم صمتٌ موحشٌ، أما الطريق فطويل، وإن لم يكن شاقًّا.

شيء ما أشعرني بالخفة، كأن جسدي بلا وزن، أو كأن الجاذبية لا تُقيِّده، تكفل له فقط عدم الطفو، لكنها لا تشده إلى الأرض.

رويدًا رويدًا راح المشهد يميل إلى النور بشكل لا يعكِّر صفوه إلَّا شبورة خفيفة وبخار ماء ينبعث من فمي حين أفتحه.

من بعيد خايلتني انحناءة الجسر الترابي الذي أسير فوقه ظننت أن الطريق ينتهي عندها، كما لو أنها نقطة حاسمة في آخر سطر ما بالاقتراب تجَلَّت أمامي - في منتصف المنحنى - شجرة صمغ عربي بجذع خشن وخضرة قاسية، والأهم بصمغٍ ملتصقٍ بها، يشبه دموعًا تحجَّرت في مآقيها على الرغم من إرادتها الساعية للسَّيَلان بروية فوجئت بأن الجسر الترابي يكمل مساره بعد هذه الانحناءة ليس ثمة نهاية ما إلى اليسار جُرْف تبين منه شواشي الحَلْفاء والغاب البلدي، وإلى اليمين صف من أشجار كافور وجازورينا، تخف كثافتها فقط عند المنحنى تاركة الفضاء لشجرة الصمغ العربي التي يجاورها منزَل بالغ الانحدار، يقود إلى طريق يقع في مستوى منخفض، ويكوِّن مع الجسر ضلعَي مثلث - أكثر انخفاضًا - مزروعًا بنباتات لا يمكن التكهن بأنواعها بسهولة.

حرتُ في أي الطريقين أسير، وحين عجزتُ عن الاختيار، اقتربتُ من شجرة الصمغ أتأملها. لاحظتُ أن بعض القطرات المتجمدة أكثر شفافية من الأخريات. دققتُ في واحدة منها فاستحالتْ مرآة صقيلة عكستْ رأسَ نمرٍ بدلًا من وجهي. أفزعني امِّحائي وحلول النمر محلي. لحظتها فقط أدركتُ أنني أختبر واحدة من إشراقاتي، وتذكرتُ أن فضاء تجربتي الروحية هذه مشابه جدًّا للطريق الواصل بين قريتي النائية والقرى المجاورة لها. أدرتُ رأسي صوب المثلث الممتد على مدى النظر، فخُيِّل إليَّ أنه مجرد بقعة ملونة بالأخضر، في خريطة مفروشة أمامي.

استولى النمر على روحى بلا امل فى الخلاص.

السير على كَسْر الزجاج

أخطو في طريق منحدر، فيخطر لي أن جغرافيا تجلياتي كلها منحدرة، كأنِّي أحث خُطاي خلالها نحو هاوية ما. أعي أنني منفصل عن واقعي المعتاد، لكنني غائب عن ذاتي وهويتي. لا أعرف من أكون، ولا تبين لي لمحة واحدة من حياتي الواقعية. ربما لانشغالي بمحاولة تفادي أن يجرحني الطريق المفروش بزجاجٍ مكسورٍ مختلف الأشكال والأحجام، أدوسه كالمنوَّم راجيًا ألَّا يخترق قدمَي.

في سريرتي، أعلم أن دربي موصل إلى نهرٍ أقرب إلى جدول مائي تنعكس عليه خضرة الأشجار والنباتات المزروعة على ضفتيه. أدرك أيضًا، أنني لن أصل إلى هذا النهر أبدًا، أو ربما لن أبلغه هذه المرة على الأقل.

لا أرفع رأسي كي أتأمل السماء، لا أعرف حتى إن كان ثمة سماء من الأصل أم لا! ولا ألقي ولو نظرة عابرة نحو اليمين أو اليسار، بصري مشدود صوب دربي الجارح الذي ازداد انحداره.

في نقطة ما، أجد أمي تنتظرني، فأتعرف على نفسي. تنحني على ركبتَي، وتشرع في إخراج شظايا منها وسط دهشتي من كيفية وصول الزجاج المكسور إلى ركبتَي في وقت لم يجرح فيه قدمَي. في أكثر من موضع على ساقَي، أبصر قطرات دم، لكنني لا أشعر بالألم، فقط بخدرٍ غريب. خلف أمي تنكفئ أختي ليلى، بجلبابٍ أزرق، على جمع شيء ما من الأرض. ليست مشغولة بالتقاط قطع الزجاج، بل أحجار لا أستبينها في البداية، قبل أن أدرك أنها حبَّات عقد كهرمان انفرط منها، وتحاول لملمته من جديد، على أمل أن يعود إلى سيرته الأولى أجهد ذهني محاولًا تذكر هل امتلكت شقيقتي يومًا مثل هذا العقد أم لا، فلا أفلح، ثم يتلاشى كل شيء.

* * * * *

2

لا يعرف مراد ماذا عليه أن يفعل! شهور قليلة ويتقاعد، ولا مجال لتأجيل تقاعده يفكر في طريقة تتيح له مواصلة عمله، فلا يسعفه خياله أو حيلته سوف يتقدم بطلب إلى إدارة المؤسسة التي يعمل بها من أجل التمديد له لعامٍ إضافي، على الرغم من يقينه بأن طلبه سيُقابَل بالرفض. يضيق تنفسه ما إن يتخيل طوفانًا من أيام تالية لا عمل ينتظره فيها: عطلة ممتدة.

يا للرعب!

تثقل الفكرة قلبه، فيحاول تخيل أعمال محتملة يمكنه الانشغال بها بعد تقاعده، لكن هذا لا يحسّن مزاجه. ماذا يمكنه أن يعمل؟ بائع في صيدلية؟ في سنه هذه! يفتتح مكتبة لبيع الأدوات المكتبية؟ تدوّخه الاحتمالات، ولا يرضيه أيٌّ منها. انتبه إلى أنه لا يرغب في أي عمل والسلام، إنما عمله الذي اعتاد عليه طيلة حياته. قد يراه الآخرون مملًا يورث الخمول والرتابة، لكنه وحده يدرك أنه جوهرة ثمينة بين أعمال أشبه بالحصى والزلط.

لا أحد يدرك أهمية الأرشيف مثله صحيح أنه مظلوم فيه، وتجاوزه الدور في الترقية أكثر من مرة، غير أن كل هذا لا يهمه يكفيه أن يظل يتردد طوال أيام العمل على مكتبه، ثم ماذا كان سيفرق معه أن يصبح رئيس قسم الأرشيف؟!

لن يضيف هذا إليه شيئًا خاصة أن الترقيات، حيث يعمل، تكون بدون أعباء مالية على المؤسسة. الراتب واحد تقريبًا. مثله مثل مديره.

حتى هذه اللحظة، يروقه تجهيز الملفات بنفسه. يقص الأخبار والتقارير والحوارات المتعلقة بموضوع بعينه ويؤرشفها في ملفات ورقية. يتابعه زملاؤه بدهشة وفضول معظمهم بات يعتمد على الأرشفة الإلكترونية، فيما ظل هو مخلصًا لما اعتاده طوال سنوات عمله الوظيفي تركوا له هذا الجانب، وانشغلوا هم بطرق الأرشفة الأحدث، مكتفين بمداعبته بخصوص رفضه القاطع لشراء هاتف محمول، أو جهاز كمبيوتر هو بالنسبة لهم خارج الزمن.

لطالما تندروا، وراء ظهره، بأنه من «أهل الكهف»، لكن أمامه اشتكوا من التوتر الذي تسببه لهم الأجهزة الحديثة. وهو لم يكن يعيرهم كبير اهتمام. في سريرته تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعهم مرة واحدة وإلى الأبد، كي يخلو له الجو في أرشيفه الحبيب.

مع الوقت، طوَّر مهارة إلغاء وجود الآخرين متى أراد. يكون بينهم لا يزال، لكنه ينجح في غلق حواسه في وجوههم. لا يكاد يسمعهم حتى لو أمعنوا في الضجيج. يغرق في ما يفعل، ويستفيق فقط إن لكزه أحدهم كي ينتبه له، ويرد على سؤال تكرر أكثر من مرة حتى ظن موجهه أنه يخاطب شخصًا أصم أبكم تريحه هذه الطريقة معظم الوقت، لكنها تجلب له أحيانًا نقمة مديره، إذا حدث وقوبِلت طلباته بالصمت، لا لأن مراد يتعمد تجاهله، إنما فقط لأنه لم يلاحظ دخول الرجل إلى المكتب الذي يجمع مرؤوسيه معًا، أو «السويقة» كما اعتاد أن يطلق عليها حين يكون ناقمًا عليهم لسببٍ أو لآخر.

يؤجل مراد التفكير في المستقبل المتوثب للانقضاض عليه، وينشغل في حاضره. كان أسبوعًا منهكًا. لم يعد قادرًا على السير إلى العمل يوميًّا كما كان يحلو له أن يفعل في الماضي، صار يستقل مترو الأنفاق؛ أكثر شيء يكرهه في العالم ينظر له كوسيلة تعذيب لا مواصلات لا يعرف من السادي الذي فكر، لأول مرة، في نقل الناس في أنفاق تحت الأرض، لكنه مقتنع تمامًا باستحقاقه للشنق، حتى لو كانت نواياه طيبة.

إذا أخبره أحدهم أنه يعاني من صداع، سوف ينصحه المدير بأن يتغذى جيدًا، وإذا عرف أن زميلًا قد عثر في شيء ما وانكسرت ساقه، سيؤكد بيقين أن هذا الزميل كان جائعًا بالتأكيد، لأنه لو اهتم بتناول وجبات مُشبِعة لَمَا انكسرت ساقه.

يأكل الرجل كثيرًا، يُحضِر معه من البيت وجبات أعدتها له زوجته خصيصًا، إضافة إلى بضع ثمرات فاكهة وزجاجة صغيرة من الحليب. لا يكاد يراه أحد بين نوبات غضبه سوى وهو يمضغ شيئًا ما، قطعة لحم، تفاحة، موزة، أو علكة لا تفارق فمه حين يتوقف عن الأكل. يقول إنها مفيدة للأذنين، ولعضلات الوجه. يتناول يوميًّا حبَّة «أسبوسيد» أطفال لضمان سيولة الدم ومنع تجلطه.

أما مراد، فيقاطع الأدوية ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، يكتفي بالأعشاب ووصفات الطب البديل، ويذهب إلى العمل بعد تناول إفطاره المعتاد: طعمية ساخنة بالعيش الفينو وقهوة تركي سادة، ووقت الغداء يتوقف عن انكبابه على العمل لدقائق يقتات فيها على رغيف خبز بلدي محمص مع قطعة جبن براميلي وخيارة وثمرة طماطم. يأكل كالمجبر على تَجَرُّع دواء مر. عقله شارد، وعيناه تائهتان كأنما يفكر في وسيلة لإنقاذ العالم.

في البيت يستمتع بالأكل بدرجة ما، لكن في المكتب يكره كل ما يبعده عن مهامه ولو لدقائق. يؤدي عمله بجدية مَن يدرك أن مصيرَ البشرية معلَّقٌ به وحده.

يفكر في هذا، فيما يجلس إلى الطاولة في بيته، فيتذكر أن اليوم يوم جمعة، ذلك الزائر الأسبوعي الثقيل على قلبه، لأنه يذكِّره بأن سنواته التالية ستكون سلسلة لانهائية من أيام الجُمَع.

تذكر انك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات .

يمسح بأصابعه غبارًا وهميًّا عن السطح المصقول للَّوح الزجاجي الموضوع فوق الطاولة، وينكفئ على دفتره الرمادي بادئًا التدوين.

بيتٌ مغمورٌ بالماء

فوجئتُ بنفسي واقفًا قبالة بيت من طابق واحد مبني بالطوب اللَّبِن ومطلي بجير أخضر باهت، على واجهته رُسِمَتْ باخرة حجاج ونخلتان وقافلة جِمال يقودها حادٍ مُعَمَّم كان الباب مواربًا فدخلتُ منه كهَبَّة هواء طفتُ بالغرف إلَّا واحدة، لأنها مغلقة من الداخل، وتنبعث منها أنوار وأصوات ذِكر وإنشاد ديني بدتْ الابتهالات والأذكار مألوفة، ومع هذا لم أستبن فحواها كانت كأنما تُتلَى بلغة عرفتها في الماضي ثم محتها ذاكرتي

ثم أدركتُ أنها ليست أصواتًا فعلية، فهذه التجربة مثل معظم تجلياتي الأخرى، تدور في فضاء انتفت فيه فكرة الصوت، أيقنتُ في سريرتي أن الابتهالات المنبعثة من الداخل رَجْعٌ صامت تستعيده ذاكرتي العتيقة من أصوات طفولتي المبكرة، لا بل من ذكريات الجنين الذي كنته.

أنا متأكد من أنني اعتدتُ سماع هذه الأصوات والإيقاعات، فيما أسبح في عتمة الرحم، وها هي تجلياتي مشكورة تعيدني إلى أيام هناءاتي غير الواعية.

من نافذة إحدى الغرف لمحتُ النيل محاطًا من ضفتيه بأشجار صفصاف ونخيل، وعند منحنى ما فيه، ثمة أرض ينمو فيها الغاب والحَلْفاء بغزارة. لاح النهر هادئًا في البدء، ثم استحال هدوؤه هيجانًا، واستحال الهيجان فيضانًا لا يبقي ولا يذر.

البيت في مستوى أعلى بكثير من مستوى النهر، كأنما يطل عليه من فوق تل، ومع هذا غمرته المياه بالكامل، وظللتُ أنا بداخله غائصًا في قاعٍ عَتَّم العالمَ في عينَيَّ. لم تصادفني مشكلة في التنفس، فقط إعتام مؤقت تلاه ضوءٌ باهر، انفتح باب الغرفة المغلقة وفاضتْ أنوارها على البيت الغارق في مياه الفيضان. من داخل الغرفة خرجتْ أمي بملابس بيضاء من الرأس حتى أخمص القدمين، وتبعتها أختي لا يستر جسدها سوى غلالة بلون فاتح، فيما شعرها الأسود الطويل يطفو خلفها ممتدًّا كبساط حريري بالغ الدُكنة.

لم تنتبها لوجودي، فاتجهتُ نحو الغرفة، حيث وجدتُ جدتي خديجة تغسل آنية وأطباقًا فيما تغني بصوت حزين وتمسح دموعها. استكنتُ بجوارها منتظرًا أن تنتبه لي وتأخذني في حضنها. على الحائط المواجه، ارتسم وجه محبوبتي وردة بعينيها النجلاوين وشفتيها المكتنزتين المزمومتين بغضب، فشعرتُ بأنِّي غير جدير بالاحتضان.

امرأة على الطريق

كنت ممددًا على ظهري في فضاء لا شيء فيه سوى عشب أخضر. من بعيد تحوطه جبال راسخة، والسماء تغمرها سحبٌ أشبه بورود ضخمة تتدرج ألوانها بين أطياف الأبيض والرمادي. أغمضتُ عينَيَّ، فتراءى لي طريق ترابي لا نهاية له، تتشعب منه وتتقاطع معه طرق عديدة على الطريق تسير امرأة عجوز بملابس سوداء وخطوات ثقيلة تتعب بعد فترة، فتجلس فوق صخرة على جانب الطريق كي ترتاح قليلًا، قبل أن تعاود السير من جديد عند مفترق الطرق تقف حائرة، ثم تختار أحدها كيفما اتفق وتواصل مسيرتها.

تَعَرَّفتُ في المرأة على جدتي لأمي، الشيخة خديجة كما اعتاد أهل القرية أن ينادوها، لكنها هنا لا تتجلى لي في سنوات عزها وقوتها، بل في سنواتها الأخيرة حين تاه عقلها وأدمنتْ السير في الطرقات، فلا يعرف أحد إلى أين تذهب أو لماذا! يمر بها أحد معارفها ويسألها عن وجهتها، فتنظر له كأنها لا تعرفه، وتستمر في خطوها ، في تلك الفترة كانت بالكاد تتكلم أو ترد على أحد، وإذا حدث وتكلمتْ لا تكوِّن جملًا كاملة أو مفهومة، بل نثار من كلمات لا رابط بينها.

توقف الناس وقتذاك عن مناداتها بلقب الشيخة، بالنسبة لهم كفَّت عن أن تكون مُحفِّظة القرآن مرهوبة الجانب، منذ انغمست في طقوس لا قدرة لهم على فهمها أو تقبلها.

تعود مع حلول المساء منهكة، تتكوَّم نائمة في أقرب ركن يصادفها ما إن تدخل البيت. في آخر سنتين من عمرها، عجزت تمامًا عن الحركة، وتقلص جسدها الفارع إلى كومة جلد على عظم. اعتادت أن تطلب من أمي حملها إلى مدخل البيت مع ترك الباب مُوَارَبًا. تجلس كومة العظام التي صارت إياها فوق بساط فروة الخروف، الذي اعتادت الجلوس فوقه قديمًا وهي تحفِّظ الأطفال القرآن في كُتَّابها، وتترك عينيها لالتهام الشارع المترائي لها من فتحة الباب. تظل نظرتها معلقة به. لم تكن تتابع الرائح والغَادي أمامها، بل تتأمل الطريق ذاته وعيناها مغمورتان بالحسرة.

في إشراقتي، كانت جدتي قوية لا تزال، غير أن الطرق التي تسير عليها لم تشبه أي طريق أعرفه بدت غريبة ومألوفة في آنٍ لاحت لانهائية في تمددها وتشعباتها، ومع هذا تمنح رائيها إحساسًا بأن بإمكانه القبض عليها وطيها ثم حملها مطوية في راحة يده.

* * * * *

3

يجلس مراد في العمل منكفئًا على ملف أمامه. يُخيَّل له أن الملفات تتراكم على مكتبه، كأنما من تلقاء نفسها، ثم يكتشف أن المسألة لا علاقة لها بالتخيل. ثلاثة من زملائه تركوا له بالفعل المهام الموكلة لهم كي ينجزها هو.

«كل سنة وأنت طيب. أول يوم رمضان، وزي ما أنت عارف لازم نروَّح بدري، عشان معزومين في بيت العيلة».

يقول له الواحد بعد الآخر، فيعرف أن المعنى المضمر لكلامهم أنه مقطوع من شجرة؛ لا أحد ينتظره على وجبة الإفطار اليوم ولا هو ينتظر أحدًا يهز رأسه، متفهمًا دون أن يضايقه هذا على العكس، يسعده أن المكتب سيخلو له، وينتظر أن يغادر الزميل الرابع، كي يصبح وحده تمامًا، سابحًا في وحدته فرِحًا بها غير أن هذا الزميل لا يُصدِر ما قد يوحي باقتراب رحيله. يرفع رأسه، من وقتٍ لآخر، وينظر إلى مراد كأنه يوشك على قول شيء ما، سرعان ما يتراجع عنه.

في النهاية يسأله: «هتفطر مع مين النهارده؟ لو هتكون لوحدك، يا ريت تشرفني بقبول دعوتي على الفطار. المدام والأولاد هيفرحوا بالتعرف عليك، أنا دايمًا بأحكي لهم عنك».

يشعر مراد بأن هناك من صبَّ عليه دورق ماء مثلج يخجله أن يشفق الآخرون عليه، ويضايقه أن الحواجز التي يبرع في إشهارها في وجوههم ليست قوية بما يكفي لإبعاده عن مرمى تطفلهم ولطفهم على حد سواء. تسعفه قريحته بقول إنه مدعو للإفطار وقضاء الليلة كلها في بيت ابن عمٍّ له يبدو مقنِعًا، لكنه لا يثق في هذا فيضيف أن ابن العم هذا يسكن في بيتٍ فخم في مصر الجديدة يخترع حكايات وطرائف وقعت أثناء زيارات سابقة لهذا البيت العامر. لا يؤنبه ضميره على هذه الكذبة، فهي لن تضر أحدًا، فقط ستنقذه هو من موقف محرج.

يهز الزميل رأسه مقتنعًا دون أن يستوقفه انسياق مراد في الاستطراد على غير عادته. فيما يفكر الأخير في ابن عمه الوحيد؛ ذلك الذي يعيش في شارع خالد بن الوليد في الإسكندرية ولم يرَه منذ فترة طويلة.

«أراح واستراح»

يقول في سره، وقد غمره الارتياح لأن القدر خلَّصه من الوصايا والنصائح التي لم يكن ابن عمه يتوقف عن إسدائها له، كأنه امتلك حكمة سليمان ويسخو بها على المحتاجين تخلَّص أيضًا من الزيارات المتباعدة إلى الإسكندرية، وهي زيارات لم يكن يعجبه فيها سوى الساعات التي يقضيها في رحلة القطار محدقًا - عبر زجاج النافذة - في المناظر سريعة العبور بالخارج، وهائمًا في ملكوت آخر، لا ينجح أي شيء في إخراجه منه أو إفاقته على ثرثرات الركاب الآخرين.

يستعيد عبارتين من كتاب القراءة في الصف الثاني الابتدائي: «الحقول تجري وتجري» و«الأشجار تجري وتجري». لا تحضره تفاصيل الدرس المنتمي لسنواته الأولى في المدرسة، يتذكر فقط أنه كان عن طفلين عائدين إلى بيتهما في سيارة الخال بعد أن قضيا عطلة صيفية عنده في القرية طفلان تخلب سرعة الحركة لُبيهما ويُخيَّل إليهما أن الحقول والأشجار هي التي تجري وليس العربة لطالما افتتن في طفولته البعيدة بالأمر نفسه، باستسلامه للفرجة من نافذة عربة مسرعة غير قادر على تمييز أي الأشياء ثابت وأيها يتحرك .

لطالما تمثلت متعته الثانية، خلال تلك المشاوير الاضطرارية، في ساعة أو ساعتين اعتاد اختلاسهما للجلوس وحده في مواجهة البحر. كان يختار ساعة متأخرة من الليل، ويجلس في أقرب بقعة متاحة من المتوسط، مستمتعًا بالرذاذ المتناثر عليه من الموج الصاخب في تكسره على الصخور. يراقب انعكاس أضواء المدينة على المياه، ويتأمل سفنًا وبواخر عابرة في البعيد، لا يعرف من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، فيشعر بالامتنان لأنه شاهد على مرورها. يقنع نفسه بأن هذه اللحظة سحرية، دون أن يفهم لماذا هي كذلك يحدس فقط بهذا مؤكد أن على متن إحدى هذه السفن العابرة شخصًا ذا شأن؛ آينشتين جديد مثلًا أو إنسان سوف يلعب دورًا ولو بسيطًا في إخراج العالم من بؤسه حين يبلغ تلك النقطة يرزح تحت ثقل الاسى .

لكنَّ النسيم الليلي المنعش ورذاذ الماء المالح يذكرانه بكل النِّعم المتوارية خلف تلال الضجر والألم يخطر له أنه محروم من كثير ممَّا في هذا العالم الشاسع، لم يخطُ سوى في مساحة لا تُذكَر منه، ولم يختبر إلَّا أضأل التجارب والخبرات، ثم ينفض هذا الخاطر بعيدًا مذكِّرًا نفسه بنعمة تجلياته وما يتراءى له خلالها من استبصارات لا يعرف عنها معظم الناس شيئًا أول مرة سأل نفسه فيها إن كان هناك غيره مِن المحظوظين بهذه الهبة، كان في حضرة المتوسط، ذات ليلة صاخبة الأمواج كأن البحر الأهم يرغب في إغراق اليابسة بأسرها، لكنه يفقد هذه الرغبة في اللحظة الأخيرة قبل قرار الإغراق. بدا لمراد كأن صوتًا بداخله يسأله: مَن منح المتوسط لقب البحر الأهم؟ فاغتاظ من حماقة السؤال بالنسبة له، هذه حقيقة علمية متفق عليها من الجميع، ثم فليذهب الجميع إلى الجحيم في التو واللحظة هو يراه مركز العالم وليس فقط أهم بحاره ويؤمن بأن الإسكندرية، مدينة العالم؛ العالم المعروف للعوام على الأقل. ومع هذا لم يكن يحب زيارتها كثيرًا، ويجيء إليها فقط ردًّا على زيارات ابن عمه له. عرف لاحقًا أن الأخير كان مغرمًا بصاحبة البيت الذي يسكن هو فيه، ولشد ما فرح حين انتهت قصة الحب بينهما، ليس عن تعاطف مع زوجة ابن عمه، فلربما كان تخلصها من زوجٍ مماثلٍ أفضل ما قد يحدث لها، إنما لأن زواج ابن العم من صاحبة البيت كان سيترتب عليه في الغالب إقامته في البيت نفسه، ما كان سيهدد حتمًا عزلة مراد.

أفاق من أفكاره وذكرياته على صوت زميل المكتب وهو يودعه قائلًا إن موعد الإفطار اقترب، وعليه أن يغادر هو الآخر قبل ازدحام الشوارع هز مراد رأسه موافقًا وإن لم تبدر منه أي علامة على تجهيز نفسه للانصراف، فلوَّح له زميله وخرج متمنيًا له صومًا مقبولًا وإفطارًا شهيًّا.

ظلَّ مراد في مكانه لساعة إضافية، لأنه كان قد عقد العزم على أن يتمرد على عادة مستقرة لديه، وأن يتناول فطور أول أيام رمضان في مطعم. زَيَّن الفكرة لنفسه منذ الصباح، متجاهِلًا رهابه من الأكل في المطاعم وحده ووضْع نفسه تحت رحمة نظرات الآخرين المتفرسة فيه والمتسائلة، ربما، عن سبب عدم وجود رفقة معه. في أعماقه، تستقر قاعدة راسخة مفادها أنه لا يصح أن يأكل الإنسان وحيدًا في مطعم. لا يعرف متى بالضبط ترسخ هذا الاعتقاد بداخله، لكنه ترسخ والسلام. هذا في ما يخص الأيام العادية، فما بالنا حين يتعلق الأمر بالمناسبات المهمة كالأعياد وأول يوم في رمضان؟

«لا، لن أرتكب هذه الحماقة!»

يردد مراد، في سره، وقد حسم أمره. لن يحول نفسه إلى مادة للفُرجة والفضول. ثم يفكر في أن المطاعم ستكون شبه خالية، وقت الإفطار اليوم، لأن الجميع تقريبًا يحتفل ببداية الشهر الكريم مع الأهل والأحباب، وبدلًا من أن يطمئنه هذا إلى عدم وجود متفرجين محتملين عليه وقت تناول إفطاره، يزيد من توتره. ماذا لو فضَّل البعض الاحتفال بالمناسبة مع أصدقائهم في المطعم الذي سيذهب هو إليه؟! يبدو احتمالًا ضئيلًا، لكنه يقرر عدم الخضوع لفوضى الاحتمالات وعشوائيتها.

في النهاية، يقرر مراد التوجه إلى بيته، في وقت خلت الشوارع فيه من المارة، لاقتراب موعد أذان المغرب بمجرد فتح باب شقته وإغلاقه خلفه، يدوي صوت مدفع الإفطار، من تلفزيون في الشقة المجاورة يضع المفاتيح على طاولة السُفرة، ويدخل إلى المطبخ ، لا يجد فيه ما يصلح للأكل، ولا يعرف ماذا يمكنه أن يطهو في هذا الوقت الضيق. يرتفع صوت الأذان من المسجد القريب. يتناول زجاجة مياه باردة من الثلاجة، ويرتشف منها رشفة يكسر بها صيامه، يتبعها بتمرة، ويجلس لدقائق لالتقاط أنفاسه، ثم يقوم لطهي كشري صعيدي، كما اعتادت أمه أن تطلق عليه. يضع كوبًا من الأرز مع كوب من العدس الأصفر في إناء ويضيف إليهما الزبد والملح والماء، ويرفع الإناء على النار. يسلق بيضتين، ويحمد الله أن لديه مخلل ليمون. كانت أمه تأكل الكشري الصعيدي مع البيض المسلوق والسلاطة الخضراء والليمون المخلل.

ينتهي من الأكل، ويشرب قهوته السادة. يشعر بثقلٍ في رأسه، لكنه يقاوم رغبته في النوم، كي لا يختل روتينه اليومي. يتذكر دفتر تجلياته، فيذهب لإحضاره من غرفة النوم. يقرأ فيه لبعض الوقت، ثم يبدأ في إضافة تدوينات جديدة إلى تلك الموجودة فيه.

نافورة مضيئة

العالم مظلم، لكنها ظلمة أليفة، يتخللها بصيص من ضوء طبيعي غامض المصدر، كأن ثمة بدرًا غير مرئي، ومع هذا يبسط نوره الخافت على كل شيء، أو كأن هناك عددًا لا يُحصَى من شموع عطرية تنثر ضوءها الخجول على الوجود رجَّحت، وأنا أسير بجوار رفيقة لا أعرفها، فرضية الشموع العطرية هذه لأن الجو معبَّق برائحة لا مثيل لحلاوتها، وإن لم يسعني تحديد أي رائحة هي بالضبط: أهي عبير ياسمين؟ أم شذا زهر ليمون؟ أم مزيج من الاثنين؟

أزحتُ الانشغال بكُنْه الرائحة بعيدًا عن ذهني كي أركز في تأمل جغرافيا مسرحي هذا. الطريق، الذي أخطو فيه بصحبة رفيقتي، ترابي غير مستوٍ، على يمينه حقول منخفضة يليها نهرٌ يتهادى متعرجًا في مساره صوب الشمال، وعلى يساره هاوية طولية ممتدة بطول الطريق تفصل بينه وبين طريق آخر موازٍ له.

أثق أن الطريق الآخر هو الذي يقود إلى مقصدنا، وأننا بسيرنا في دربنا هذا، لن نصل إلى أي مكان مأهول. أحاول شرح الأمر لرفيقتي، لكنها لا تنتبه لي، تبدو كأنما لا تسمعني من الأساس، فأدرك أن كلامي ينساب بصمتٍ بداخلي، ولا يتشكَّل في صورة صوتٍ مسموعٍ لأحدٍ سواي.

أواصل المشي محاولًا الاستمتاع بالنسيم المنعش والظلمة غير التامة، فأجد نفسي موزعًا بين النظر بحسرة إلى الطريق الصحيح، في الجهة الأخرى من الهاوية، وبين تأمل امتداد الصراط الذي أُختير لي ولرفيقتي. عند نقطة محددة، نلتقي برفيق ثالث، لا أعرفه أيضًا، لكنني أحدس بأن ثمة ما يجمعني به. أجهد نفسي في محاولة أن أوضِّح للرفيق الجديد أننا جميعًا في المكان الخطأ، وأن علينا البحث عن جسر نعبر عليه الهاوية كي نصل إلى الطريق الموازي لها، إن كنا نرغب في بلوغ وجهتنا.

لم أعرف إن كان كلامي قد خرج إلى العلن أم لا! ما حدث أن رفيقنا الطارئ لم يردَّ عليَّ، فقط أشار إلينا أن نتبعه يمينًا. نظرت صوب الحقول المنخفضة المجاورة للنهر، ولم أفهم كيف سنهبط إليها! اكتشفت وجود طبقة أقرب بين دربنا وبين الحقول، يقود إليها ممر مائل. سرت ورفيقتي خلف الرجل كالمسرنمين، فرأينا نافورة مضيئة من حجر الصوَّان يتدفق الماء منها إلى بحيرة رقراقة تنعكس على سطحها أضواء النافورة. بدا المنظر خلابًا لسبب غير مفهوم لي. دون ذرة من تردد، خاضت رفيقتي في المياه التي وصلت إلى خصرها. أردت أن أحذو حذوها، لكنني نظرت إلى حذائي وملابسي، غير قادر على اتخاذ قرار نهائي. حدست فقط، بأن بمجرد نزولي إلى البحيرة لن تعود حياتي كما كانت.

أرض الحصاد

كنت أجري كأني في مهمة تتوقف حياتي على تنفيذها لم أشعر بالتعب أو الضغط، على العكس داخلني ارتياح وسرور ينبعان من خِفَّة لم يسبق لي أن أحسستُ بمثلها قبلًا كدتُ أرى نفسي ريشة بيضاء يحركها الهواء، ناقلًا إياها من موضع لآخر، دون حاجة منها لبذل أي جهد.

انتهى بي الدرب عند بقعة حَدَستُ بأنها حافة العالم، حيث ألفيتُ نفسي مُطِلًّا على حقلٍ شاسعٍ يغص بالحاصدين. كانوا يحصدون نباتًا يشبه القمح أو الأرز، لكنني كنتُ واثقًا من أنه ليس أيًّا منهما. يمكنني تمييز الاثنين، ولو على بعد أميال. لَشَدَّ ما أرهقتني رائحة غبار القمح المنتشرة في هواء قريتي خلال الموسم الحار للحصاد والدَّرْس، تلك الرائحة التي أورثتني حساسية مزمنة في الصدر أمَّا الأرز، فلطالما خلَّف في نفسي جرحًا لا سبيل إلى شفائه فإن نسيتُ لن أنسى أوقاتًا عصيبة قضيتها في حراسة المحصول المفضَّل لعائلتي من غزو العصافير، مثلما لن أنسى خوضي في مياه أشبه بالمستنقعات تمتلئ بها حقول الأرز معظم فترة زراعتها.

لاحظت أن الحاصدين يؤدون مهمتهم بهمَّة، ومع هذا لا يبدو لي أنهم يحققون تقدمًا يُذكر. تتكوم أكوام من النبات الجاف بلونه الأصفر الذهبي خلفهم، وتتسع المساحة غير المحصودة أمامهم. خطر لي أن هذا الحقل، المترامي على مدد بصري، أرضٌ للحصاد فقط؛ موطن للنهايات غير المُنجَزة، ولم يتذوق قط لذة البدايات الموسومة بالأمل والرجاء.

تعاطفتُ مع المنكفئين على إنهاء عملهم، غير ملتفتينإلى سرمديته، ووددتُ لو أتمكن من معاونتهم، على الرغم من اندثار معظم ما يخص الزراعة والحصاد من ذاكرتي منذ أمد طويل. أراحني إدراكي أن هذا المشهد تحديدًا مجرد مادة لفرجتي، دوري أن أتلصص عليه، وأخمِّن أبعاده وخفاياه، وحتى لو عرفت، بالقدر المخاتل الذي يتيحه الحدس من معرفة، السر الكامن خلف هؤلاء الحاصدين ومهمتهم العبثية، فلن يفيدني هذا في شيء، والأهم أنه لن يفيد قوم الحصاد هؤلاء، فمصيرهم - كما يتراءى لي - محدد سلفًا.

حفر البحر

رأيتني في عالم بلا نهاية؛ عالم مائي لا أثر فيه لليابسة ولا للبشر أو النباتات. لا طيور ولا حيوانات ولا أحجار، باستثناء زلط ملون، تراءى لي في قاع الماء الرائق. لم أندهش حين خطوت فوق الماء كما لو أنه أرض بديلة؛ بلا رجفة أو شك أو خوف من غرقٍ محتمل لم يكن في ذاكرتي أي شيء يخص الغرق، كأنه لم يوجد قط، ولن يُخلَق مستقبلًا كان ليروقني - في حال عرفتُ في تلك اللحظة مفهوم الغرق - وجود عالم لا مكان للغرق فيه. سرت على الماء كيفما اتفق، ونظرت للأفق محاولًا استكناه ما يخبئه لي. بلا مقدمات، انحسر الماء عن دائرة، في وسط المحيط الممتد. لم تتكشف عن انحساره أرض مستوية، بل ما يشبه الحفرة اقتربت كي أنظر إلى داخلها من مكاني بالأعلى، فلم أجد فيها أثرًا للمياه، ولا لأي سائل آخر، وأبصرت دَرَجًا حلزونيًّا، لم أستطع مقاومة إغراء وضع قدمي على درجته الأعلى والنزول إلى حيث لا أعرف بالأسفل، رأيت الكون في طفولته يُجهز ويُعَدُّ بيد الإنسان: هذا يحفر البحر، وهذه تثبت القمر بموقعه في السماء، وذاك يبذر البذور منتظرًا بزوغها من الأرض؛ أرض سُوِّيت ورُتبت بمزاج.

في ما يشبه إشراقة فرعية داخل إشراقتي الأصلية، فطنت إلى أن هذا العالم البِكر لم يعرف البحار قبلًا، على الرغم من أنه كائن في باطن بحر يعلوه كما لو كان سقفًا له وأدركت أن البشر يبتكرونه بأنفسهم، كما يبتكرون بقية مكونات عالمهم في لحظة الإدراك تلك غمرني معنى الغرق تمرغتُ فيه وامتلأتُ به حرثُ: هل أحذرهم مما هم مقبلون عليه؟ هل أنصحهم بعدم حفر البحر؟ أم أتركهم لاختبار لذة الاكتشاف بأنفسهم؟ انحزتُ إلى الصمت في النهاية، إذ أُدرِك أكثر من غيري درجة إغواء البحر، وأعلم أن عالمًا بلا بحار أو أنهار لا يستحق عناء العيش فيه.

* * * * *

يجلس مراد على الفوتيه المواجه لنافذة غرفة المعيشة محدقًا في زهور الجهنمية المتمايلة بفعل النسيم. يحسد الأغصان المتسلقة على خِفَّتِها وقدرتها على أن تسلك طريقها للأعلى متجاوزة أي عقبات محتملة. السماء غائمة في الخارج، ولا أثر للشمس. يقبض هذا قلبه للحظات، لكنه سرعان ما يقنع نفسه بأن اللون البنفسجي المتألق لزهور الجهنمية شمسٌ، بل شموس بديلة.

ينتعش بلا مقدمات، ينهض ويذرع المكان جيئة وذهابًا، كأنما يُقلِّب فكرة لامعة على جميع وجوهها، مع أن ذهنه فارغ كفؤاد أم موسى يتوقف وقد سيطر ثقلٌ هائلٌ عليه لا يدرك من أي ثغرة نفذ إليه كل هذا الغم! يتراوح مزاجه بين السعادة الغامرة غير المبررة وبين البؤس المفاجئ كل ساعة تقريبًا، وربما كل دقيقة على الرغم من أنه يسكن في الدور الخامس، تصله أصوات الشارع والمقهى أسفل البناية المجاورة بلا توقف، وتُنغِّص هدوءه إن لم يكن محتاطًا لها بإغلاق النوافذ وإسدال الستائر كما هي عادته، التي يختار من وقت لآخر التمرد عليها، قبل أن يرتد إليها صاغرًا، حين تقتحم ضجةُ الخارجِ وشروره مخبأه. نعم، صار ينظر إلى الشقة التي عاش فيها لعقود، وكانت بيتًا له في ما مضى، باعتبارها مخبأً، لا أكثر ولا أقل.

يذكِّره الضجيج بجبريل؛ الرجل الصاخب الذي تعرف عليه في خضم دوامة ٢٠١١، واعتاد أن يراه كلما جلس إلى المقهى الشعبي القريب من عمله. كان جبريل هذا يرى في كل شيء حوله مؤامرة كونية. الحق يُقال إنه بدأ هذا قبل أن يصير التآمر تهمة رائجة، يرددها الجميع تقريبًا وتتبناها وسائل إعلام وإعلاميون معروفون. أي شخص لا يعجب جبريل متآمر. صبي المقهي الذي يتأخر في إحضار حجر الشيشة له متآمر. بائع عصير القصب المتجهم على ناصية الشارع متآمر. مديرته في العمل طابور خامس. الهواء الذي نتنفسه عميل لجهات أجنبية.

ولا فائدة طبعًا من محاولة إقناعه بالعكس، ثم كيف يقنع أحدهم مدرعة بشرية، لا عمل لها غير إصدار الضجيج، بأي شيء؟! صوته عالٍ حتى وهو يحاول الهمس في أذن جاره بسر يرغب في ألَّا يعرفه أحد سواهما يصل الكلام إلى كل زبائن المقهى بلا محاولة منهم للتنصت، في حين يبدو جبريل غافلًا عن أن سره أصبح مشاعًا يعاني من ثقل في السمع، لذا كثيرًا ما يطلب من محدثه إعادة كلامه أكثر من مرة، شاكيًا من الشباب المُخَنَّث، الذي يتحدث بصوتٍ منخفضٍ كالنساء بالنسبة له النساء كائنات أدنى بمراحل من الرجال تمثلت مشكلة حياته في أن رئيسته في العمل امرأة، وعلى الرغم من أنها مديرة في مؤسسة حكومية وهو فَرَّاش في مكتبها، فإنه يتعامل كما لو كانت قد جارت على حقٍ أصيلٍ له في أن يكون رئيسها، لا لشيء إلَّا لكونه رجلًا وهي امرأة.

«الدنيا انقلب حالها!»

ترن الجملة الأثيرة لجبريل في ذهن مراد، كأنما يسمعها منه مباشرة، فيرد في الحال:

«ومين سمعك يا جبريل!»

اعتاد الرجل ترديد جملته هذه كلما جاء ذكر الست المديرة؛ المعروفة عنده بلقب «الوِلية الناقصة»، وإذا اعترض مستمعه على إهانته للمرأة وراء ظهرها، يسارع بالمحاججة بأن: «النساء ناقصات عقل ودين».

«شككوا بقى في كلام النبي! ما أنتم عالم كفرة ما تعرفوش ربنا».

يقول بصوته الجَهْوَرِي المشروخ، فلا يكلف أحد نفسه عناء الرد بأن الحديث المشار إليه ضعيف النسب. يبتسم جبريل بظفرٍ، ويبدأ في وصلة غناء مواويل، لا يعرف أحد من أين يأتي بها! ما يلفت نظر الجميع أن صوته يَرِقُّ في الغناء حتى يكاد يصير شَجِيًّا.

«أبويا زرع لي جنينة كلها برتقان خالص، أزرع وأرَوَّح ألاقي البربري حارس، والنبي، يا ابن الكلب، لأبيعك وأشتري حارس، وأسد باب الوصية، وأهرب من البلد خالص».

يغني بخشوع كما لو كان ينشد «نهج البردة»، وحينيصمت لا يعلق أحد على غنائه بشيء. كأن الجميع اعتادوا هذه الفواصل الغنائية القصيرة التي يقطع بها أي حديث دون اكتراث أو تأنيب ضمير.

لم يكن مراد يعرف أين يسكن جبريل! ولا من أين أتى إلى القاهرة! عندما سأله مرة أخبره بأنه يقيم مع أسرته في بشتيل. لمح في عينَي مراد جهله بالمكان، فَوَاصَل كأنما ينهي الموضوع:

«مش بعيدة. الطريق الدائري خلاها فركة كعب. اللهيمسيه بالخير الريس مبارك مطرح ما هو بقى».

ثم نظر له متحديًا وباحثًا عن لمحة اعتراض على وجهه، قبل أن يقوم متعللًا بأنه تأخر و«الولية الناقصة» أنذرته بالنقل لو لم يحسِّن من أدائه في العمل.

جبريل، كما قدمته الحوائط وقتذاك، بدا كَمَن عثر على صوته أخيرًا، مع الجموع الثائرة، فقرر ملء الفضاء العام بصراخه المتلعثم المرتبك. ما كان يلفت النظر إليه ليس حكمة ولا ألمعية ما، في ما يكتبه ويرسمه على الحوائط، إنما العكس تمامًا: التلعثم والتناقض بل وربما البلاهة، مع الإصرار على أن يضفي بصمته على مشهد مصر الصاخبة.

ما إن سقط مبارك، حتى رسم أصحاب المحال التجارية على الأعمدة الحاملة للوصلة بين الكوبريين، علم مصر يعلوه شعار الجيش المموه. الألوان الزاهية عكست فرحة وفخرًا شاعا وقتذاك. بعد فترة قليلة، وفوق الأعمدة نفسها، راح جبريل يعلن عن نفسه، بادئًا ثورته الخاصة.

في وقت كانت حوائط المدينة تكاد ترتجف فيه من كم الغضب المبثوث فوقها ضد الفساد وفلول النظام السابق، وضد التقاعس عن تحقيق أهداف الثورة، اختار جبريل أن يعلن حربًا تخصه وحده.

فوق الرسومات المتباهية بـ«وحدة» الجيش والشعب،أخذ يكيل السباب البذيء إلى ممثل شهير. ساعتها، لم يكن قد تشجع إلى حد توقيع ما تخطه يداه، فقط غمر الأعمدة كلها تقريبًا بهجومه الجارح، غير المُوقَّع، والمكتوب بخطٍ مرتبك، وبأخطاءٍ إملائية بالجملة.

محو الشتائم، لم يثبط همته، إذ واصل كتاباته، وإن بدأ يوسّع من نطاق اهتماماته. تناسى على ما يبدو مشكلته مع ذاك الممثل، وراح يشتبك، على طريقته، مع الأحداث من حوله.

كتب: «مصر فوق الجميع»، وربما لأنه وجد العبارة غيرمحددة ولم يُستدل منها على من هم هؤلاء «الجميع»، تلاها بأخرى، يمارس فيها شوفينية حذرة: «مصر فوق العرب»!

غير أن هذا لا يعني أنه معادٍ للعروبة أو من المنادينبالهوية المصرية الفرعونية، لأنه سرعان ما دافع عن عروبة القدس مطالبًا بسقوط إسرائيل واتحاد العرب.

الشعارات الدينية كان لها حضور بارز في جرافيتيجبريل، إذ بدا معتزًّا بكونه مسلمًا عبر عدد من الشعارات.

«اسلموا تسلموا»! تواجه هذه الجملة من ينزل من كوبري ١٥ مايو، قادمًا من الزمالك، دعوة مهدِّدة يوجهها جبريل إلى غير المسلمين، لكن مع التقدم في الشارع ثمة جرافيتي يُمَثِّل عناق الهلال مع الصليب، كُتِب تحته: «مسلم ومسيحي يد واحدة» مرة، و«مسيحي ومسلم يد واحدة» أخرى.

لطالما حار مراد في معرفة: أي الرجلين هو جبريل!أو بالأحرى أي هؤلاء هو: أهو المصري الشوفيني؟ أم المسلم المتعصب؟ أم المتسامح الحريص على الوحدة الوطنية؟ أم القومي المدافع عن عروبة القدس؟!

في فترة معرفته الأولى بجرافيتي «أبو منى»، كانت هذه الأسئلة تبزغ في ذهنه، غير أنه سرعان ما كان يتجاوزها بقول: «وأنا مالي! دع الخلق للخالق. يتحرق دول على دول».

كان كل شيء يوتره في تلك الفترة المَوَّارة، يعود إلشقته وفي رأسه ضجيج العالم كله. يغلق النوافذ ويسدل الستائر محاولًا استعادة الصمت الأليف لشقته، لكن هيهات. قاطع التلفزيون تمامًا، وحتى إذاعة الأغاني، تجنب الاستماع إليها لأنها سخَّرت معظم فقراتها لإذاعة أغنيات وطنية تعود لعقدي الخمسينيات والستينيات. لاحظ أن المذيعين والمذيعات يخاطبون المستمعين كما لو كانوا أطفالًا، وأثار هذا غضبه ونقمته. اعتاد سَدَّ أذنيه بسدادتين مطاطيتين والسير في الشوارع الجانبية، وعدم النقاش مع أي شخص حتى حول حالة الطقس والتغيرات المناخية.

في المقهى، حيث كان يجلس مرة أسبوعيًّا بعد انتهائه من عمله، في انتظار عملاء يجلبون له مسوَّدات كتب كي يدققها لغويًّا، اعتاد اختيار ركن بعيد عن الضجيج، ومع هذا كان يصله صوت جبريل الغاضب دومًا يطلب مراد قهوة سادة، لا يقترب منها، ويحدق في اللا شيء ساهيًا عمن حوله يستلم المخطوط المطلوب تدقيقه، ويدعو حامله إلى شاي أو قهوة، فيعتذر ويغادر سريعًا المتعاملون معه يعرفونه جيدًا، ويحترمون ميله إلى العزلة وعدم حبه لتضييع الوقت في كلام لا يعنيه في شيء. مثل كل تفاصيل حياته المخططة والمنضبطة، كانت لجلسته هذه قواعد لا يحيد عنها. يجلس كل أربعاء من الثانية بعد الظهر حتى الثالثة في ركنه القصي، لأنه لم يكن يستطيع استقبال عملائه في مكتبه، فهذا عمل إضافي الغرض الظاهري منه رفع مستوى الدخل، لكن حقيقة الأمر أن مراد لم يكن في حاجة إلى المال، فميراثه من أرضٍ زراعية باعها ووضع ثمنها في البنك، أكثر من كافٍ لتأمين مستقبله حتى وفاته، الفكرة أنه كان يستشعر لذة خاصة، وهو يصحح أخطاء الآخرين، ويخلِّص كتاباتهم من الركاكة والنواقص. لطالما أقنع نفسه، أنه عبر هذا الفعل البسيط، يعيد إلى العالم المختل بعضًا من اتزانه، يكفِّر عن خطاياه هو، ويعتذر بطريقة غير مباشرة لِوَرْدَة عما ارتكبه في حقها.

كان أحيانًا يسأل نفسه: ما علاقة هذا بِوَرْدَة؟

ثم يطرد التشكك في الحال، مؤكد أنها ستكون راضية لأنه يقلل من حجم الأخطاء في العالم. وردة، كما يعرفها، تسعدها أقل اللفتات والأفعال. يتضايق بلا مقدمات، لأن وسواسًا ينخر في رأسه بفكرة مفادها أنه بخل عليها بأبسط أسباب السعادة.

في الأسابيع التي لا يأتيه فيها أحد بمخطوط في حاجة للتدقيق، يظل جالسًا أيضًا حتى تمام الثالثة، ثم يغادر جلسته بلا ضيق أو ارتياح، فقط بحياد يتقن التعامل به مع كل ما يقابله. يتجنبه زبائن المقهى باستثناء جبريل، إذ كان الوحيد القادر على كسر القوقعة التي يحيط بها مراد نفسه، أو درع السلحفاة العزيز عليه كما يسميه. بصوته الغليظ يناديه بالدكتور، ويسحب كرسيًّا ويجلس في مواجهته شاكيًا من مديرته ومن وقاحة النساء وإمرارهن الحياة على الرجال. لا يَفُتُّ من عزمه أن مراد يرد عليه بالكاد، بهزة رأس أو بهمهمة خافتة، بل يواصل شكواه.

لم يفقد جبريل في أي لحظة القدرة على إدهاش مراد. وحده كان قادرًا على إثارة حيرته وفضوله. كان من المستحيل عليه تفسير مواقف الرجل وآرائه وفق منطق مألوف. لا ينشغل مراد بتحليل سلوكيات أحد، قُتِل فضوله قبل زمن طويل، لكن جبريل مثَّل له أحجية من نوعٍ ما خُيِّل إليه أنه انبثق فجأة من أرض العدم في فضاء حياته هو أقنع نفسه بأنه ظهر في عالمه لغرضٍ ما، لدورٍ محدد عليه تأديته توجس من هذا الخاطرٍ، لكنه ظل يتنامى بداخله بمرور الوقت، خاصة مع حرص جبريل على فرض نفسه عليه على الرغم من محاولاته هو التملص منه.

ذات يوم فاجأه جبريل بمعرفته أنه يعمل في المؤسسة الصحفية المعروفة، فتساءل مراد ماذا أيضًا يعرف هذا الرجل الفوضوي عنه! شرح له أنه ليس صحفيًّا، إنما موظف في الأرشيف، ولا علاقة له بما يُنشَر في الجريدة، ومع هذا أحضر جبريل في الأسبوع التالي أجندة مهترئة قدمها له بفخر باعتبارها مذكرات كتبها خلال الفترة التي عمل فيها بالعراق خلال ثمانينيات القرن العشرين. تظاهر مراد بالاهتمام بينما يتصفح فقرات ركيكة يتحدث فيها جبريل عن الغربة وعن حبيبة لا يشير لاسمها هز رأسه واعدًا إياه بقراءة المذكرات كاملة وإعادة الأجندة له في أقرب فرصة بدا جبريل محبطًا كأنما توقَّع من مراد أن ينتحي جانبًا في المقهى لقراءة ما كتب والبدء في مديحه مع أول جملة يقرأها.

خاف مراد أن يبدأ جبريل في الإلحاح عليه كي يساعده في نشر مذكراته، لأن ذلك سيضطره للانقطاع عن المقهى الذي صار الجلوس عليه جزءًا من روتينه الأسبوعي، ومراد لا يرحب أبدًا بأي تغيير ولو طفيف في روتينه المعتاد.

وكما لو أنه استدعى شبحًا وأغراه بتخوفه هذا، شرع جبريل في ملاحقته بلا هوادة، متخيلًا أنه يضن عليه بالمساعدة، فاضطر مراد لهجر جلسته الأسبوعية في المقهى، وصار العملاء القليلون يتركون له المخطوطات المراد تدقيقها في استقبال الجريدة. في أحيان كثيرة، كان يشعر بأن جبريل يسير خلفه في طريقه من وإلى محطة مترو الإسعاف.

يستشعر خطوه الثقيل وحضوره المتجهم، ويكاد يتناهى إليه صوت أنفاسه، لكنه حين يستدير للتأكد من وجود مُلاحِقه، لا يبصره. يقول في سره إن الرجل اللئيم ابتكر وسيلة لإخفاء نفسه عنه، لكن هيهات، فمراد الواثق من قدرته على استكناه حُجُب الخفاء ورؤية ما يتدثر فيها، موقن من مراقبة جبريل له وضغينته تجاهه.

المرات القليلة التي رآه فيها رأي العين قبل تقاعده مباشرةً، أشاح الرجل فيها بوجهه بعيدًا عنه وتظاهر بأنه لم يرَه. حيلة مكشوفة، الغرض منها التغطية على ما يضمره له من أذى وما يحيكه من مكائد. هذا ما بات مراد يؤمن به بعد أن جلا التقاعد واعتزال الناس بصيرته.

يهز النسيم أغصان الجهنمية، وتغزو الظلال غرفة المعيشة تقف حمامة رمادية على حافة النافذة من الخارج، فيشعر مراد بالعري أمام نظرتها لم يعد يطيق أن يرزح تحت نِير النظرة المسلطة عليه من أي كائن آخر يتحامل على نفسه حتى يقف، يشعر بالترنح لكنه يقاوم. يتجه صوب النافذة ويهش الحمامة بالطرق على الزجاج المغلق، فتبتعد مفزوعة. يسدل الستارة، فتغمره الراحة. تذكره طمأنينته المفاجئة بدفتر تجلياته، يُخرِجه من الدرج، ويعكف على التدوين.

مسيرة

كنتُ في غرفة لا يسعني تحديدها أو تذكر معالمها، تحضرني فقط مرآة طولية وقفت أمي أمامها مرتدية جلبابًا برتقاليًّا، تتفحص شكلها فيه منعكسًا في المرآة، وفي الخلفية تجلَّت أختي ليلى هشة بحضور يشبه الغياب.

لم يخطر لي أن البرتقالي وغيره من ألوان مبهجة، لم يكن يومًا ضمن اختيارات والدتي، كنتُ مشغولًا فقط بإقناعها بأنه ينبغي عليَّ مرافقتها إلى الخيَّاطة كي أشرح للمرأة ما تريده هي بالضبط وما يناسبها، نظرت لي أمي بلا تعليق ودون اقتناع، فأضفتُ أن لديَّ ضيوفًا أنتظر فقط توديعهم، وسوف أتفرغ بعدها للذهاب معها.

لم تعلق أيضًا، وأمعنت أختي في تواريها، أما أنا فخرجتُ إلى شرفة محاطة بالأشجار، ومن خلال الأشجار رأيتُ من بعيد جسرًا مغلَّفًا بالرمادي، لم يكن ضبابًا، كان يشبه لقطة سينمائية قصدها المخرج خافتة مضببة إمعانًا في التأثير في نفوس المتفرجين.

على الجسر لاحت لي مسيرة ممتدة وثنائية، زوج من البشر يسيران معًا بوهن ويليهما زوج ثانٍ وثالث وهكذا الجميع يرتدي ثيابًا برتقالية داكنة يتضاد لونها مع رمادية الجسر، فتظهر رغمًا عنه بدوا كالمساقين إلى حتفهم، وتأكدتُ من هذا، حين بان لي في أثرهم رجال مدججون بالأسلحة وبضعة كلاب بوليسية.

نسيتُ كل شيء عن أمي وأختي في الداخل وتعلقت عيناي بجسر رمادي أضحى فارغًا، قبل أن يخبو وتنعدم رؤيته.

فكرتُ في أن الجسر لم يختفِ، بل زادت جرعة رماديته بحيث توارى عن العيون على الرغم من وجوده، شأنه في هذا شأن مئات الأشياء التي أثق في وجودها، ومع هذا لا يمكنني رؤيتها.

في خضم هذا، كنتُ واعيًا بأنِّي منفصلٌ عن واقعي، غارقٌ في واحدة من إشراقاتي، أحب إشراقاتي هذه لأنها تتيح لي - على الرغم من كل شيء - رؤية أمي الميتة وأختي الغائبة. تذكَّرتُ وردة، فتمنيتُ رؤيتها وخشيتُ منها في آنٍ.

دوار

وجدتُ نفسي في أرضٍ دائرية منبتة عما سواها. نظرتُ حولي، فلم أتمكن من رؤية ما يتعدى الدائرة الأرضية، كأن لا عالم ولا حياة خارجها. عرفتُ أني سوف أعيش هنا محكومًا بالجهل والغفلة، ولن يمكنني إبصار أبعد من موطئ قدمي آلمني هذا وأراحني في آن سبب الألم مفهوم، أما الراحة فمردها أنّي شعرتُ أخيرًا بأنني بلا مسؤوليات أو واجبات كائن غُفْل لا أحد يشعر به أو يتوقع منه شيئًا، في الحقيقة لم يكن ثمة أحد سواي أنا فقط والعالم من بعدي خواء وفراغ انتبهتُ إلى أن دائرتي الأرضية ليست ثابتة، إنما تترجرج ترجرجًا لا يكاد يُلحظ تساءلتُ في سري إن كانت محمولة فوق مياه من نوعٍ ما، ثم توقفتُ عن التساؤلات، ورحتُ أخطو موائمًا حركة جسدي مع إيقاع الرجرجة الخفيفة أبصرتُ على مقربة مني صفًا من أشجار الجنكو؛ أقدم الأشجار على سطح البسيطة كنتُ قد حفظتُ بنفسي ملفًا في الأرشيف عنها، فتعرفتُ عليها على الفور، وشعرتُ كأنما أعرفها منذ زمن سرتُ في طريقي، مديرًا ظهري لأشجار الجنكو، فمررتُ بأشجارٍ أخرى ميَّزتُ بعضها وجهلتُ أغلبها.

شعرتُ بأنني في جنَّة ما، ثم تذكرتُ أنه لا يمكن لغويًّا وصف حديقة بالجنَّة إن لم تحتو على نخيلٍ وأعناب، فقررتُ الانشغال بالسير بحثًا عن النخل والكروم. منحتُ نفسي هذه الوظيفة هنا، وشعرتُ باشتياق هائل إلى أرشفة كل شيء حولي، وإن لم أعرف سبيلًا لأرشفة الأماكن والطبيعة والطرقات.

في النهاية، استرحتُ إلى فكرة أن الأرشفة الذهنية كافية شرط ألا تخذلني ذاكرتي.

* * * * *

5

منذ تقاعده، قبل سنتين ونصف، انتظمت حياة مراد في روتين لا يكاد يتغير يخرج يوميًّا في الصباح الباكر ليشتري نسخة من كل جريدة، لا يهمل حتى تلك الراكدة عديمة الأهمية إن شئنا الدقة، كل الصحف عديمة الأهمية من وجهة نظره، لكنها وسيلته لما يتعداها ويتعداه.

يعود ومعه طعمية ساخنة وعيش «فينو» وثلاث ثمرات فاكهة بالعدد. واحدة يتناولها مع الإفطار وثانية يُرجِئها إلى ما بعد الغداء، والثالثة هي كل عشائه.

منذ صغره لا تحلو له الطعمية سوى بالعيش الفينو وقتها كانت عزيزة المنال، إذ لم يكن هناك من يبيعها في قريته الصغيرة، وبالتالي لم يكن يأكلها إلَّا حين يزور المدينة أو القرية الكبيرة المجاورة لقريته، حيث مركز الشرطة والوحدة الصحية والكثير من الطعمية الساخنة المحشوة في العيش «الفينو».

في أوقات أخرى، كان يروقه الاكتفاء بساندوتش بيض مسلوق بالليمون المخلل، تخصص فيه مطعم صغير ملاصق لموقف سيارات الأجرة التي تقل الركاب من تلك القرية إلى المدينة يتردد على الموقف خصيصًا للاستمتاع بهذا الساندوتش فيما يراقب السائقين والمارة حاول أن يُعِدَّ مثله في بيتهم، لكنه لم يفلح لا أحد يمكنه تخليل الليمون بمهارة أمه، وسلق البيض لا يتطلب قدرات خاصة، والعيش الفينو كان يشتريه من المخبز نفسه الذي يتعامل معه صاحب المطعم الملاصق للموقف، ومع هذا لا يكون المنتج النهائي بالطعامة نفسها.

اعتاد أن يلوك الساندوتش المجهز في البيت بلا ذرة استمتاع، مندهشًا عندما ذهب مرة ليُفاجَأ بالمحل مغلقًا إغلاقًا نهائيًّا، اعتبر الأمر مؤامرة مدبرة ضده سأل عن سبب الغلق، وعرف أن صاحب المحل مريض ولم يعد قادرًا على العمل، ومع هذا ظل هو شاعرًا بالغبن لحرمانه من ساندويتشه المفضل.

يتذكر الطعم وهو عائد بجرائده وبالطعمية الساخنة والعيش الفينو وثلاث ثمرات برتقال، فيجري ريقه، ويتمنى لو توقف به الزمن عند تلك المرحلة، حيث لا مسؤوليات ولا هموم حقيقية، وحيث هو كائن غافل يرفل في بحرٍ من المَسَرَّات العابرة. وأخته ليلى صغيرة كان يصطحبها معه، ويفرح حين يروقها ساندويتش البيض المسلوق بالليمون المخلل. يشتري لها ما تشتهيه من حلوى ويعودان سيرًا إلى قريتهما.

بعد سنوات، اعتاد انتظار وردة في موقف سيارات الأجرة المجاور، يغادر القرية قبلها بساعة أو ساعتين، يتسكع هنا وهناك قبل التوجه إلى الموقف في انتظار مجيئها حين تَهِلُّ، يتظاهر بتجاهلها، ينظر إلى الجهة الأخرى، محاولًا كتم غضبه بسبب تحديق الرجال فيها. تجلس، كما أخبرها، في المقعد الأمامي ويدفع أجرة إضافية كي تُبقِي المقعد بينها وبين السائق فارغًا. ويجلس هو بجوار الشباك في آخر كنبة بعربة الميكروباص.

حين يصلان إلى طنطا، يتبعها حتى يبتعدا عن موقف السيارات، ثم يسيران معًا في شوارع المدينة بحرية. يتجولان في شارع سعيد أو شارع البحر، يدخلان السينما في حفل الظهيرة أو يجلسان في كازينو غير مطروق كثيرًا.

يتنهد مراد، فيخرج من عالم ذكرياته. يضع مشترياته على مائدة السفرة، ويملأ «كنكة» القهوة بالماء ويضيف إليه البن الغامق ويبدأ في التقليب، ثم يتركها على نار هادئة. يجلس إلى المائدة ويحشو العيش الفينو بالطعمية، ويغمض عينيه وهو يلتهمه. ينظر إلى ساعته، أربع دقائق فقط كل ما تحتاجه القهوة، يلحقها كل مرة في اللحظة الأخيرة قبل الفوران. لو له أن يفخر بشيء في حياته، فسوف يفخر قطعًا بقدرته على تقدير الوقت اللازم بالضبط لإعداد قهوته. لا ثانية زائدة أو ناقصة. حتى إذا سَها، ورفع شعلة النار قليلًا، يذهب أيضًا في اللحظة المناسبة بالضبط. صار مقتنعًا بأن لديه ساعة بيولوجية أو غريزة ما مضبوطة على الوقت اللازم لتجهيز قهوته... يعود بالمشروب الساخن، يزيح الأكل جانبًا، ويرتشف قهوته على مهل متلذذًا بطعمها. القهوة المثالية من وجهة نظره هي الخالية من أي إضافات: لا سكر، لا حليب، ولا هِيل.

يُدخِل الفنجان وبواقي الأكل إلى المطبخ، يُنَظِّف الطاولة، ويفرد الجرائد أمامه بادئًا العمل. يقص الأخبار والتقارير والحوارات والتحقيقات التي تلفت نظره، ويصنفها وفقًا لموضوعها، ويبدأ في لصقها على صفحات بيضاء، يحفظ كل منها في الملف المخصص لموضوعه يستغرق الأمر الساعات الأولى من نهاره في حوالي الثانية عشرة، يجهز فنجانًا آخر من القهوة ويتمدد على أريكة غرفة المعيشة بعد الانتهاء من قهوته الثانية - حتى الواحدة. ما إن تعلن دقات الساعة وصول الموعد المنتظر، حتى يفتح الراديو على إذاعة الأغاني للاستماع إلى فقرة محمد عبد الوهاب، ينسجم مع الصوت العظيم ويتسلطن، فينسى كل شيء آخر.

تذكر أنك حملت رواية أطلس الخفاء حصريا من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

يغلق الراديو مباشرة بعد انتهاء فقرته المحببة تلافيًا لأن يصفعه منسق الأغاني بما قد يعكر صفو يومه لا يُعقل مثلًا أن تباغته بعد عبد الوهاب أغنية لهاني شاكر أو ميادة الحناوي أو محرم فؤاد لا يصح هذا ولا يجوز محتفظًا بانتعاشه كاملًا لنجاته من فخ مماثل، يخرج دفتره الرمادي من درج الكومود في غرفة نومه، ويتجه إلى الطاولة الخالية الآن من كل شيء يفتح الدفتر، ويُخرج قلمه الحبر الأزرق ماركة باركر وينكفئ على التدوين، دون أن يترك لنفسه فرصة للتفكير إن حدث وتابعه أحدهم، في عكوفه الطقسي هذا، سيظن أن هناك صوتًا داخليًّا يُملي عليه ما يجب كتابته، إذ لا تشي ملامحه بلحظة تردد أو وقفة للتدبر في ما قد يضيفه لاحقًا.

جنة من أعناب ونخيل

وجدتني في عربة تتحرك ببطء بلا سائق ولا صوت، عيناي مثبتتان على زجاج النافذة، أتابع عبره السور النباتي الخارجي لحديقة هائلة. لم يتبدَّ لي منها سوى هذا السور المكوَّن من أشجار ملتفة على بعضها بعضًا بحيث تخفي الجانب الآخر منها، ومع هذا شعرتُ كأنما بوسعي رؤية داخل الحديقة.
أغمضتُ عينَيَّ فرأيتُ ما يحجبه السور عن بصري. في الداخل، ثمة نهران يلتقيان عند نقطة ما ليكوِّنا نهرًا واحدًا يشق الحديقة من المنتصف، ويأخذ مسارًا عريضًا، وتحيط به من ضفتيه نباتات غاب وبردي.

عرفتُ، بطريقة مبهمة، أن النهر المتكوِّن لتوه من التقاء النهرين يصب في بحر تبدأ حدوده خارج حدود الحديقة من الجهة المقابلة رحتُ أتخيل المياه المنسابة من أسفل أشجار السور الملتفة المحدِّدة للحد الذي يلتقي عنده النهر بالبحر: مياه عذبة في جنة من نخيل وأعناب، ومياه مالحة في الخارج.

عرفتُ أيضًا أن بساتين النخيل تقع على ضفة النهر الغربية، فيما تقع الكروم على ضفته الشرقية، وفي بقعة ما على حدود بساتين الكروم تنتصب شجرة ياسمين تنشر فروعها في شتى الاتجاهات، وتنفض عنها زهورها بشراهة، بحيث تنبلج الشمس كل صباح على ياسمينة لا تحمل زهرة واحدة، ومئات الزهور الساقطة على الأرض كأنها نُدف ثلج متكومة بعضها على بعض.

تماثيل من اليشب

في حديقة مشيَّدة على هيئة مدرجات، كل مدرج منها مزروع بأشجار وزهور مختلفة عن بقية المدرجات، رحتُ أنتقل من مدرج إلى آخر مستمعًا إلى خرير ماء يتساقط من نافورة من المرمر تقع في المدرج الأعلى، يتداخل مع الخرير أغنية عذبة بموسيقى لم أسمع مثلها من قبل وبلغة مستغلقة على فهمي. تدرجت ألوان الأشجار المتقزمة بين أطياف الأخضر والأحمر الخريفي.

شيء ما أخبرني أن حديقتي هذه مزيج من نمطَي الحدائق الصينية واليابانية. حين وصلتُ للأعلى حيث النافورة المولِّدة للماء والخرير، نظرتُ من هناك إلى منطقة خلفية بالأسفل، لم أكن قد انتبهتُ إليها في صعودي.

تراصت فيها تماثيل لبوذا متدرجة الأحجام، يمكن وصف بعضها بالعملاقة. ما لفت نظري أكثر من غيره أن التماثيل كلها - حتى الضخم منها - مقدودة من أحجار كريمة تنوعت بين الفيروز واليشب الأخضر والأبيض والعقيق بألوانه المختلفة والأوبال. من بينها، تعلقت عيناي بتماثيل اليشب على وجه الخصوص. بدا الوجه الضاحك المتماثل فيها كأنه حي لا جمادٌ صامتٌ.

نزلتُ نحو منحوتات الأحجار الكريمة هذه، وقفتُ أتأملها لبرهة، لكن حين مددتُ يدي لألمسها، لم أمسَّ سوى الفراغ، على الرغم من أنها ظلت قائمة أمام عينَيَّ أدرتُ ظهري لها وخرجتُ من الحديقة في ساحة فضاء ملاصقة لها رأيتُ تسع نساء يرقصن رقصة غريبة كأنهن يسمعن موسيقى لا يسمعها سواهن واصلتُ سيري في الشارع العريض المحاط من الجانبين بأشجار سامقة تفرش ظلها ولا تتيح للشمس التسلل من بين أغصانها فكرتُ في أن

الشجر مألوف لي على الرغم من أنِّي لا أعرف اسمه برقت في رأسي فكرة أن إشراقاتي طبقات وطبقات، وأنني في مناطق متوارية في ثناياها مُطَّلِع على كثير مما أظنني لا أعرفه. في تلك الدهاليز السديمية أُدرك الطرق الواصلة بين جغرافيا إشراقاتي كلها، وأُلِم بخارطتها بأدق تفاصيلها. خطر لي أيضًا أنني - لسببٍ غامضٍ عليَّ في هذا البعد، وجلي في البعد الآخر الخاص بالاستبصارات والإشراقات - أدرك جيدًا أسماء الأشجار كلها ودلالات التماثيل وما الذي يفضي إليه المنحدر المطل على فم العالم، وما يحدث في مدينة الأبعاد الثنائية والبشر الأشبه برسوم «كروكية». في منتصف الشارع تقريبًا صادفتني هوة مخيفة تفصل الجزء الذي أقف فيه عن الجزء الآخر، فتوقفت قبل أن تزل قدمي وأسقط فيها.

عالم من الدروب المتقاطعة

أسير في دربٍ موحش، أشعر بنفسي خفيفًا متخلصًا من عبء الزمن وثِقَل الأيام. أحببتُ هذه النسخة مني، مدركًا أنها ليست أنا بالتأكيد. أو ربما تكون إياي في حالة أخرى ومكان آخر. أتفرج عليها مثلما أفعل مع غريب موسوم بشيء لافت للنظر، ثم أنساها، وأحدس بتلاشيها، فلا يبقى أمامي سوى التحديق في المشهد نفسه. أكتشف أنني أمام شبكة من الدروب والطرقات المتقاطعة، تعرفتُ من بينها على شارع أشجار الباوباب، فاطمأننتُ لبرهة، لكنَّ اطمئناني اضْمَحَلَّ بانتباهي إلى أن العيش في عالم مماثل يعني أن يتحول المرء إلى عابر سبيل أبدي؛ إذ لا حِلَّ يُرتجى، إنما ارتحال دائم. ثم إنَّ تقاطعات الطرق اللانهائية هذه، تتطلب من سالكها اتخاذ قرارات لا تُحصى، خاصة بأي الطرق عليه أن يسلك؟ ولماذا؟

لم يدم تعاطفي مع عابر السبيل المفترض طويلًا، إذ سرعان ما انشغلتُ بالخوف من إمكان أن تنقطع بي السُّبل، فأظل عالقًا إلى الأبد في تلك البقعة المنبتة الصلة بأي مكان آخر أنفر من الناس، ولطالما تمنيت العيش في عالم خالٍ منهم، لكنَّ غيابهم التام عن جغرافيا إشراقتي هذه، قبض قلبي، وأورثني الغم والكآبة لم أجد تفسيرًا مقنعًا لهذا، فواصلتُ الخطو، كيفما اتفق، في الدروب المتقاطعة وقد أقنعتُ نفسي بأن واقعي لا يختلف عنها كثيرًا، فلطالما كانت حياتي قاحلة، باستثناء سنواتي الأولى ربما، ولطالما أجبرتني الحياة على خيارات وقرارات كنتُ أُفضِّل لو لم أضطر لها.

6

البيت، في أول القرية، كان محتميًا بعزلته لم يفصله عمَّا يجاوره من بيوت سوى خطوات قليلة، ومع هذا لطالما بدا لمراد الطفل، كما لو أنه محاط بجدران لامرئية تمنع الآخرين من الاقتراب منه، وتمنع سكانه من التواصل مع عالمهم المحيط.

«بيت العبد»؛ هكذا كانوا يطلقون عليه. نوافذه مغلقة دومًا، وأبوابه لا تُفتَح إلَّا نادرًا. في مرات معدودة رأى مراد أطفال البيت يخرجون للَّعب أمامه، وعلى عادة الأبوين، حافظوا على عزلتهم؛ لم يشاركوا أبناء الجيران لعبهم، كما تجنبهم هؤلاء بدورهم.

مع الوقت، أدرك أن كلمة «العبد» لا تشير إلى اسم صاحب البيت أو لقب عائلته، إنما هي صفة اقترنت به بسبب اللون الداكن لبشرته. كان يمتهن دفن الموتى، لذا لم يعرف مراد في البداية، هل كان الناس يتجنبونه، بسبب مهنته أم لون بشرته!

حين التحق مراد بالمدرسة الابتدائية، في قرية مجاورة، عرف شخصًا آخر يُطلَق عليه «العبد» أيضًا، ولم يكن يجمعه بالأول سوى لون البشرة ذاته والعزلة المفروضة عليه، ففهم الصغير أن المسألة أبعد من مهنة غير مستحبة.

كان الرجل يملك مطعمًا للفول والطعمية، على مقربة من باب المدرسة، لكنَّ الأطفال اعتادوا مقاطعة مطعمه، وقطع مسافة طويلة لشراء الساندويتشات من مطعم آخر.

في ذاك الوقت البعيد، لم يدرك مراد المعصوبة عيناهبغمامة من ضباب الطفولة، أن عزلة البيت الواقع في أول القرية، ستلعب دورًا محوريًّا في حياته. لكنه بمرور الأيام، وببداية تعلقه بوردة في مطلع شبابه، راح يجمع كل ما يتناهى إليه عنها وعن أصلها وفصلها. كانت هذه التفاصيل تُتَدَاول همسًا وعلى نحو مُلغِز، غير أن شغفه بالجميلة السمراء أمده بالصبر والدأب اللازمين لغزل خيوط حكايتها، أو بالأحرى حكاية أبويها، في نسيجٍ محكم.

عرف مثلًا أن بيت «العبد» هو بيت أبيها وأبنائه من زوجته الأولى، وأن لونها الخلاسي الذي لطالما خلب لُبَّه، نتاج التزاوج بين لون أبيها الداكن ولون أمها الأفتح. لم تستمر الزيجة طويلًا؛ ما يكفي فقط لحمل العروس التي لم يفهم أحد كيف أغواها رجل يتجنبه الناس، ويمتهن حرفة تثير نفورهم وانقباضهم، لكن الجميع تفهم هجره لها، وعودته إلى زوجته الأولى وأبنائه منها قبل حتى أن تولد وردة.

تبنى أهل القرية قصة مفادها أن الأم حملت سِفاحًا من آخر، والزواج من عثمان العبد كان مجرد حيلة متفق عليها ومدفوع ثمنها كي تمنح لابنتها أبًا شرعيًّا، لكنَّ آثار جيناته البادية على صغيرته، سرعان ما وأدت هذه الفِرْية في مهدها، فظهرت قصة أخرى لا تلغي نظرية السِّفاح، بل تقرها مؤكدة أن الأب هو عثمان بالفعل، لكنه اعتدى على الأم، فحملت منه، واضطرت إلى قبول الزواج منه تجنبًا للفضيحة.

تجاهل مروجو القصتين أن أم وردة بانت عليها كلالعلامات الخاصة بالعشاق المخذولين بعد تطليق عثمان لها؛ ذَوَت كنبات حُرِم من الضوء والغذاء، وامتنعت عن الخروج من بيتهم الواقع في الجهة الشرقية من القرية، وتركت رعاية وليدتها لأمها فردوس، فكبرت الصغيرة وهي لا تعرف غير جدتها أمًّا لها، خاصة أن الأم سرعان ما ماتت وفق الرواية الرسمية، أو أحرقت نفسها بحسب الهمسات التي تناهت إلى مراد من أكثر من مصدر.

بالغت فردوس في رعاية حفيدتها وتدليلها، ولم تأبه بالنظرات الغاضبة أو الناقمة التي لاحقت الصغيرة في مسيرة تفتحها إلى أنثى تلفت الأنظار أينما حلَّت، سَدَّت أذنيها أيضًا أمام الاعتراضات على جرأة وردة، وأوقفت كل من ألمح إلى أن مصيرها سيكون نسخة من مصير أمها، إن لم تحكمها بيدٍ من حديد، عند حده.

أما وردة نفسها، فكانت غافلة عن كل ما يثار حولها، لم يرَها أحد قط على مقربة من بيت أبيها، اعتادت فقط قطف الليمون من الأشجار المجاورة لبيت جدتها، والتمدد ساعة العصاري فوق السطح غير عابئة إن كان هناك من يراقبها من فوق الأسطح المجاورة أم لا! والنزول للتنزه على النيل، من وقت لآخر، مختالة بشعرها الأبنوسي الطويل، وعينيها القادرتين على تعليق القلوب بصاحبتهما دون أدنى مجهود منها. ومع أنها لم تنل أي حظ من التعليم، كانت حريصة دون ممانعة من فردوس على ارتداء ملابس تشبه ما ترتديه نساء المدينة القريبة التي تزورها مرة على الأقل شهريًّا. تدخر لها فردوس ما يفيض عن حاجة المتطلبات الأساسية للبيت، وتشتري لها أقمشة ملونة وترافقها إلى الخيَّاطة، لكنها هناك لا تكاد تتكلم، تجلس شاردة، تحسب ما تبقى معها من نقود، وتترك لحفيدتها، اختيار ما يروقها من تصميمات تعرضها عليها الخيَّاطة من مجلات بصفحات مهترئة.

تعاملت فردوس مع وردة باعتبارها مشروعها الخاص، وسيلتها كي تثبت للأب أنه الخاسر بتخليه عن ابنتها وابنته منها أرادت أن يحسدها إخوتها من أبيها ويتمنوا لو كانوا مكانها ووردة من جانبها أثبتت أنها جديرة بحمل هذه المسؤولية، جديرة بأن تكون محط الأنظار وموضع الحسد.

مَن غير وردة تجرؤ على الخروج بأثواب شيفون تكشف ذراعيها وجزءًا من صدرها؟ مَن غيرها تقف في الباحة المفتوحة أمام بيتها، تلك الواقعة في المسافة بينه وبين أشجار الليمون المجاورة له، بقميص نوم من الساتان القرمزي أو من الدانتيل المغوي والموحي للمخيلات الجائعة بلمحات من النعيم المتواري بدلال تحت النسيج المشغول بحدب وشغف؟ اعتبرها الجميع لعوبًا لا يهمها سوى استعراض فتنتها وتأجيج الشهوات بجسدها المنحوت بإتقان. وحده مراد من رأى الطفلة الوجلة المختبئة خلف ألعاب الغواية والبحث عن نظرات الوله والافتتان. وحده من أدرك أن تحرر وردة في التعامل مع جسدها وعدم خجلها منه، لا ينبعان من تباهٍ به وثقة في سلطانه على الآخرين، بل من غفلة عنه وسذاجة مفرطة في فهمه وإجادة لغته السرية.

لم يكن مراد يملُّ من المرور بشارعها، والتلكؤ أمام بيتها، على أمل أن يحظى بنظرة منها. لم يصدق عينيه حين ابتسمت له للمرة الأولى بات يتبعها كظلها، خاصةً حين تغادر القرية في مشوار سواء مع فردوس أو بمفردها لم يبدر منها ما يدل على أنها منتبهة لتتبعه لها في مشاويرها، ومع هذا كان واثقًا من كونها لاحظت أنه يلاحقها، فلا يمكن أن تكون كل هذه اللقاءات العابرة مصادفات.

استغل مرة فرصة وجودها وحيدة في طنطا، واقترب منها سائلًا إياها إن كانت تحتاج إلى أي شيء. بدا متلعثمًا كأنما نسي القدرة على الكلام، قال شيئًا عن أنه في طريقه إلى الجامعة، حيث يدرس، ومع أنه كان في الإجازة الصيفية، ومؤكد تدرك ذلك، لم تحرجه، وسايرت كذبته. سارا معًا من شارع إلى آخر، وتحدثا في أشياء كثيرة بلا معنى تقريبًا، إلا أنها بدت مهمة لكليهما على نحوٍ ما.

بعد ذاك، صارت تتفنن في طرق لإقناع جدتها بألا ترافقها إلى المدينة، ومن جانبها لم تعترض فردوس كما توقعت حفيدتها. أوصتها فقط ألَّا تتأخر في العودة، وأن تحافظ على نفسها ما استطاعت.

يستعيد مراد، بينما يتنقل بين غرفة المعيشة والمطبخ وغرفة النوم، جولاته مع وردة في طنطا، فيتكثف حنينه إلى تلك الأيام، ويكاد يرى وجه محبوبته مرسومًا على الهواء أمامه. يمد يده إليه راغبًا في تلمسه، فلا يمسُّ إلَّا الفراغ. ينسيه هذا، الانقباض الذي صار يشعر به كلما أبصر دفتر إشراقاته. يتجه إلى غرفة النوم، ويخرجه من درج الكومود. يقصد طاولة السفرة، ويجلس ليكتب كما لو أنه قادر عبر هذا على بعث وردة أمامه من جديد.

شجرة شوك في منتصف الدرب

وجدتني سائرًا في الجهة الشرقية من قريتي، حيث اعتاد بصري التوجه كل صباح لتعقب شروق الشمس، فيما أقف في شرفة بيتنا، وحيث يقع بيت وردة. لم أكن متعبًا، لكنَّ خاطرًا أسرَّ لي بأنني أسير في هذا الطريق منذ الأزل، وعليَّ مواصلة السير فيه حتى الأبد. في سريرتي، أوقن من أنه الدرب نفسه الذي اعتدت قطعه كلما اشتقتُ إلى وردة على أمل أن ألمحها في جلستها المعتادة أمام بيتها، غير أن لا شيء فيه يشبه أيًّا من معالم القرية المحفوظة في ذاكرتي مثل وشمٍ جارح ومقبض.

ما أكد لي أنني في تلك البقعة الحبيبة على قلبي لا تزال، أن روح وردة خيمت على المكان، وأحسستُ بطيفها الرهيف كأنما يتبعني، وكدتُ حتى أسمع الوقع المحبب لضحكتها المغوية، تلك الضحكة التي لطالما سلبتني عقلي وأنفاسي.

التقط أنفي أيضًا عبير الليمون، المرتبط في ذهني بالبيتالمتقشف لوردة وجدتها فردوس، فمن بين أشجار الليمون السَّخِيَّة المجاورة لهذا البيت، لطالما ابتهجتُ برؤية معشوقتي وهي تخرج وفي يدها سلة ملأى بثمار ليمون اعتادت جدتها بيعها مع البيض والزبد والجبن القريش لأهل القرية.

على الرغم من ضيق الحال، حافظت العجوز على مستوى معقول من العيش لحفيدتها، اختصتها بأفضل الثياب والطعام ودللتها كما يليق بها. رغبت دومًا في تعويضها عن يتمها قدر الإمكان.

يتكثف شذا زهر الليمون، وتتجلى وردة وشعرها الأسود الفاحم يتطاير خلفها، وعلى أطرافه زهور بيضاء تشبه الياسمين. أنتبه إلى أنها تتجاهلني، تخطو بمحاذاتي دون أن تنظر إليَّ، بل ربما لا تراني أصلًا. على شفتيها ابتسامة مطمئنة، وبشرتها الخِلاسية تفيض نضارةً وشبابًا، ونظرتها مثبتة على نقطة ثابتة أمامها تتجاوزني، فأفطن إلى طفلة قابضة على يدها اليمنى كائن رقيق بفستان مزركش وشعر بني قصير فكرتُ في أن الطفلة كان من الممكن أن تكون ابنتنا، في ظل ظروف أخرى.

كنتُ سائرًا لا أزال حين اختفت وردة وصغيرتها في طريق جانبي منحدر ومزنَّر من الجانبين بنباتات حليب الشوك البرية. هَممت بأن أتبعهما، لكنني شعرتُ بجسدي مقيَّدًا وخطوتي مجبورة على مسار معين ليس بمقدوري أن أحيد عنه. ثم حاصرتني نباتات حليب الشوك من كل جانب، راحت تنغزني بأشواكها الحادة، قبل أن أستحيل إلى شجرة شوك ضخمة تتوسط الدرب وتغلقه في وجه الراغبين في اجتيازه.

طائر على شجرة ليمون

على ضفة نهر رأيتُ وردة تسير مع أختي ليلى، تضحكان وتتناغيان كصديقتين مقربتين. أدهشني هذا، فليلى لم تكن تطيق وردة، ولا أتذكر أني رأيتهما معًا في مكان واحد إلَّا والتوتر المكتوم رفيقهما الثالث، والشرر يكاد يتطاير من إحداهما صوب الأخرى. لم أفهم قط سر تلك العداوة، وتمنيتُ دومًا لو تصادقتا. أُومِن بأن حياتي كانت لتتغير لو أن العلاقة بين أقرب اثنتين إلى قلبي اتسمت بالود.

يلفت نظري أن المياه هنا، أسرع في جريانها، وعلى الرغم من سيولتها تبدو أشبه بعقيق مائل للخضرة، تنعكس عليه أشعة الشمس، فيزداد بريقه.

«نعم، هذا عقيق مذاب»

أقول لنفسي، فلا يخرج صوتي، لكنني أسمعه مرارًا وتكرارًا في أعماقي.

يقتلني الفضول لمعرفة ما الذي تسر به وردة إلى شقيقتي! أتحكي لها عني؟ وماذا يمكن أن تقول بعد ما جرى مني؟ يؤلمني أن تكون صورتي النهائية في ذهنها سيئة وأوقن من أنها كذلك.

لكنَّ ليلى تضحك بعمق، أكاد أسمع صوت ضحكتها التي لطالما أبهجتني. أقول في سري إن أختي لن تضحك أبدًا على شيء سلبي عني فجأة، تختفي وردة ويظهر شخص متجهم، تبتسم له ليلى، لكن ملامحه لا تنبسط ردًّا على ابتسامتها، ومع هذا تقترب منه وتقبض على يده بألفة ومودة يسحبها من يدها، ويسير قريبًا جدًّا من مياه النهر، تتعثر في حجرٍ ما ويختل توازنها، ولا أنتبه إلَّا وجسدها يرتطم بالماء. يصرخ رفيقها بهستيريا، لكنه لا يُقدِم على ما هو أبعد من هذا؛ لا يلحق بها محاولًا إنقاذها. فقط يجثو على ركبتيه ويخبط رأسه بكفيه.

أشعر بجسدي مشلولًا، وبأنِّي غير قادر على التدخل لانتشال أختي من النهر. إرادتي مُقيَّدة كأن الدور المقسوم لي مجرد الفرجة على مشهد سينمائي يدور أمامي.

يتلاشى الرجل الباكي المولول، وتنبثق وردة مكانه. تجلس على حافة النهر هادئة، ترقب الضفة الأخرى وطيور سمان تحلِّق فوق الماء، أتذكر أنها لطالما أحبت الطيور، وتمنت أن أعلمها القراءة والكتابة كي تقرأ عنها وتجيد التمييز بين أنواعها. قالت لي مرة إن طائرًا يعشش في شجرة الليمون القريبة من شُبَّاكها ويوقظها تغريده العذب كل صباح، وترغب في معرفة اسمه. وقتذاك، كنتُ أضحك من انشغالها بهذا الأمر، وعدتها أن أعلمها حين نتزوج وأن أجلب لها كتبًا وموسوعات عن الطيور كي تتعرف على جارها ذي الصوت الجميل، ولم أفِ بوعدي كالعادة، لكنني في ما بعد، حين لم تعد هناك فائدة من البكاء على اللبن المسكوب، ولم يعد طيف وردة يظلل على حياتي، قرأتُ كثيرًا عن الطيور، وتمنيتُ لو عرفتُ أي طائر ذاك الذي لم تكن تملُّ من الحديث عنه.

يخيل إليَّ أنها تغني. لا أسمع صوت غنائها، فقط أحدس به، وأستحضر صوتها المنغم وهي تغني أغنيات وردة الجزائرية؛ سَميَّتها ومطربتها المفضلة. تمد يدها اليمنى صوب الماء، فتنبعث ليلى منه وتقبض على اليد الممدودة لها. تسحبها وردة نحوها وتجلسها بجوارها. لا تبدو أختي مبتلة على الرغم من خروجها من النهر.

أراهما من الخلف؛ وردة تستحيل طائرًا لم أرَ له مثيلًا من قبل، وليلى تنبت على أطرافها براعم، وتستحيل شجرة ليمون ينتشر شذاها في الأجواء. يحلق الطائر بعيدًا، ثم يعود ليعشش فوق أحد أغصان الشجرة.

7

اشتاق مراد إلى الشوارع. حَنَّ إلى مشواره اليومي إلى العمل. لم تعد الإشراقات تسحبه إلى جنَّتها، هجرته تاركةً إياه فريسة لأصوات مزعجة تحاصره أينما اتجه. جماع من همس وصراخ وضحك يشبه الفحيح وضجيج يخلِّف خدوشًا وخربشات على جدار عقله.

ارتدى ملابسه، وقرر الخروج لا يعرف إلى أين. قال لنفسه إنه سوف يترك خطاه تقوده حيث تريد. أمام البناية التي يقطن بها وقف حائرًا، وفي النهاية استقر على خط سيره المعتاد قبل التقاعد. خطا بتثاقل مؤتنسًا بضجة الصباح الخفيفة؛ أبواب المحال التجارية وهي تُفتَح، نداءات الباعة الجائلين على بضائعهم من خضر وفاكهة، وطنين مكتوم يغلِّف عالمه.

ابتسم لأطفال عائدين لآبائهم بفول وخبز وجرجير لوجبة الإفطار، فلم يبادله أيٌّ منهم الابتسام. لاحظ الوجوم العالق على الوجوه والأجواء.

لا يدرك كم بقي منعزلًا في شقته! حَسَبَ أن سنوات طويلة انقضت عليه في الداخل، وأنه كأهل الكهف، خرج غريبًا لاجئًا إلى عالم مُستَغلَق على فهمه وعصر لا يربطه به شيء.

في المترو انتابه ارتياح غير متوقع بالنظر إلى اختناقه المعتاد من وسيلة المواصلات هذه، على الأقل توجد تفاصيل لا تزال مألوفة له. نزل في محطة الإسعاف، تحامل على نفسه وهو يصعد السلالم. وجد مقعدًا رخاميًّا مُثَبَّتًا في مواجهة صيدلية الإسعاف، فجلس فوقه بجوار امرأة بدينة بعباءة سوداء وطرحة باللون نفسه. تفحصته المرأة بعدائية، فتجاهلها.

انتبه إلى تزايد أعداد كلاب الشوارع. عصر ذهنه، فلم يتذكر أنه سبق له رؤية كلاب ضالة في هذه المنطقة. في الشوارع الجانبية ربما، لكن ليس في شارع رمسيس، تذكر أن اسمه القديم هو «شارع الملكة نازلي»، فشعر بأن هذه المعلومة مهمة، وإن لم يتمكن من القبض على سبب أهميتها ملكٌ غابر وملكة أحدث عهدًا منه، تَفَكَّر في هذا الأمر للحظات، ثم لعن الاثنين في سره ما دخله هو بالملوك والملكات؟ بل ما دخله بالتاريخ؟ لو كان له خيار في الأمر، لألقى بالتاريخ كله في أقرب مقلب قمامة. أجال البصر حوله، فلمح منفذ بيع لحوم تابعًا للشُّرطة، يتزاحم الناس عليه لرخص أسعاره. خمَّن أن رائحة اللحم هي ما جذب الكلاب.

انتفض قائمًا، وقرر العبور إلى الجهة الأخرى، وفي باله التسكع لبعض الوقت في شارع ٢٦ يوليو والشوارع المتفرعة منه. المسافة من مبنى دار القضاء العالي حتى البناية الضخمة على الناصية الأخرى تحولت إلى منطقة عمل مسورة بحواجز معدنية، فسار في طابور مع زملائه المواطنين بممر لا يتسع عرضه إلَّا لشخصٍ واحد.

تجاهل إحساسًا بالاختناق بدأ يتسلل إليه. عند نقطة معينة كان الهواء معبَّقًا برائحة بسطرمة بالبيض لطالما ارتبطت عنده بهذه البقعة. يعرف أنها آتية من مطعم صغير في الجوار. لم يجرؤ قط على تجربة أطعمته، ومع هذا ترسخت رائحة البسطرمة تحديدًا في ذاكرته حتى أصبحت مرادفًا لهذه المنطقة كلها. يحث الخطى، يلكزه السائر خلفه، فلا يتوقف للحظة للنظر إليه. يشم أنفه عبقًا عدائيًّا في محيطه. تقتحمه رائحة بن قوية، لا يلتفت لليسار صوب منبعها. ترتسم في ذهنه مطحنة بُنٍّ، و«بار» رخامي يجلس إليه زبائن لاحتساء قهوتهم ببطءٍ واستمتاع، يود لو يشاركهم، ثم يفطن إلى أنهم غير موجودين إلَّا في خياله. ينظر أخيرًا إلى اليسار، فترى عيناه مطحنة البُنِّ والزبائن الجالسين فوق مقاعد مرتفعة مستغرقين في طقسٍ بدا له سحريًّا. يدعك عينيه، ومع هذا لا يتلاشى المشهد، ولا يعترف هو بواقعيته. تصله همهمات غاضبة من السائرين خلفه.

«بلاش عَطَلَة يا أستاذ، عايزين نشوف مشاغلنا»

ينتبه مراد إلى أنه متوقف في مكانه، ركبتاه مزعزعتان وجبهته تتصبب عرقًا. يتحامل على نفسه، كي لا يعطِّل طابور السائرين خلفه. ينتهي الممر الجانبي، بمجرد تجاوزهم منطقة العمل، ويعود إلى الشارع اتساعه، فيرتاح مراد نسبيًّا. يتظاهر بالفُرجة على واجهات محال الملابس كي يلتقط أنفاسه. يخطر له التوجه صوب شارع شريف، لطالما أحب هذا الشارع دون سببٍ واضح. اعتاد في بداية إقامته في المدينة السير في ٢٦ يوليو، ومنه إلى طلعت حرب وقصر النيل، وكلما وصل إلى تقاطع الأخير مع شريف، شعر بأنه آمن. لكنه، هذه المرة، يقطع الشارع بدايةً من ناصيته مع ٢٦ يوليو.

تلفت بناية بعينها انتباهه، يثق من أنه كان يتردد عليها كثيرًا في الماضي ، بها مكاتب عديدة لتصوير الأوراق والطباعة والترجمة المعتمدة. لا يحضره سبب تردده عليها في ما سبق، يشك حتى في هذا حين يخطو داخل البناية ويصعد إلى طابقها الأول. يسير كالمسرنم، كأن ثمة نداهة ما تقود خطاه.

يجد مكتبًا لخدمات الإنترنت، فيه زبائن قليلون، وبجواره مركز الثقافة السينمائية التابع لوزارة الثقافة، من داخله انبعث ضجيج منفر دال على مشاجرة، سرعان ما امتدت إلى خارج المقر مع خروج أحد الموظفين، وملاحقة موظف آخر له بسباب، لم يفلح بقية الزملاء في إيقاف طوفانه يتجاهلهم مراد، ويلاحظ بابًا بجواره لافتة مكتوب عليها: «رابطة الطلبة الصوماليين»، دون الحاجة لقراءة عبارة: «تأسست في الخمسينيات»، المدونة أسفل اسم الرابطة، يعرف مراد أنها تنتمي إلى زمن عبد الناصر.

«ضيف من عالم آخر غريب!»

يفكر في هذا، ثم سرعان ما يشعر بأنه، هو نفسه، هذا الضيف القادم من عالم مندثر. يغمره شعور بالفقد وبأنه طفل تائه في مولد. من ماضٍ سحيق تحضره ذكرى مزعجة؛ كان في الخامسة أو السادسة من عمره، مع أسرته في الليلة الكبيرة بمولد السيد البدوي، الضجيج يغطي على كل شيء: ضحكات أطفال وابتهالات حزانى وطامعين في التوبة والغفران، وأناشيد ذِكْر صوفية. أبوه منتشٍ في غمامة الابتهالات والأناشيد، وأمه وسط الجمع مشغولة بليلى؛ الرضيعة الغافية على حِجرها، وهو ركض خلف أطفال آخرين راغبًا في اللعب معهم، ثم وجد نفسه وحيدًا في زحام المولد وصخبه وقف مرتعبًا، لكنه قاوم البكاء كي لا ينتبه أحد إلى كونه ضائعًا منذ صغره، لا يثق في أحد غرست فيه جدته خديجة بذور الحيطة والحذر إن كان هناك درس نافع علَّمته إياه، في ذلك الزمن البعيد، فهو أن يظل في مكانه في حالة الضياع. أن يتخيَّر بقعة ظاهرة ويلتزم بالبقاء فيها إلى أن يعثر أبوه عليه. وهو ما قام به على أفضل نحو. ظلَّ واقفًا في ركنٍ بعيد قدر الإمكان عن الزحام. لاحظه الناس واقترب بعضهم منه محاولًا مساعدته، غير أنه لم يشفِ غليلهم ولم يرد على أسئلتهم المتتالية عن اسمه أو أي شيء يخصه. في النهاية، وجده والده، بعد أن لَفَّ في المولد من أدناه إلى أقصاه، وشكر أبناء الحلال الذين رغبوا في مساعدة ابنه، لكن الابن لم يمنحهم أي فرصة لذلك بصمته وتجاهله إياهم.

هذه النقطة تحديدًا، صارت مادة للتندر في العائلة وأصبح مراد مَثَلًا في صد الفضوليين والتعامل معهم كأنهم هواء. أورثه هذا الحدث خوفًا غريزيًّا من الزحام والصخب، ودَفَعه إلى تجنب الموالد والاحتفالات ما استطاع.

يهبط دَرَج البناية بتثاقُل، يخرج إلى الحر والرطوبةمواصلًا سيره البطيء. يقرر في النهاية الجلوس في مقهى قريب. يختار طاولة تطل على الشارع، وفي الحال يكتشف خطأه. ليس من الحكمة في شيء الجلوس هكذا فُرجة لكل مَن هَبَّ ودَبَّ. أين ذهب حذره! يفكر منتبهًا لعيون تكاد تخترقه.

يقترب النادل منه ويسأله متذاكيًا: الأستاذ أول مرة يشرَّفنا؟

ترتعش يدا مراد، ويهمهم بالإيجاب.

«اسم الكريم إيه؟»

يشيح بوجهه بعيدًا ولا يرد. يكتفي بطلب قهوة سادة وكوب ماء. يغادره النادل مغتاظًا، فيوقن مراد أن الرجلَ مُخبِر يجمع معلومات عن الرواد المشكوك فيهم. يقول في سره إنه يفهم هذه الأمور جيدًا، ويتذكَّر جبريل. تباغته عبارة سمعها في صباه، في إحدى حلقات برنامج «عالم الحيوان»: «... كما يَشُمُّ النسر رائحة الموت في الغابة». لا تحضره بداية العبارة، لكنه يدرك سبب تذكره إياها: يلتقط أنفه رائحة المخبرين كما يَشُمُّ النسر رائحة الموت في الغابة.

إلى طاولة بعيدة يجلس رجلان ينظران إليه، ثم يهمسان بما يعجز عن التقاطه، وفي الزاوية يطيل آخر التحديق فيه، قبل أن ينكَبَّ على التدوين في دفتر أمامه يفكر مراد في أن الرجل يكتب تقريرًا عنه يسأل نفسه كيف لم يفطن مبكرًا إلى أنه مُستَهدَف قبل إحالته إلى التقاعد سمع عن وشايات تخفي أشخاصًا من فوق ظهر الأرض، ولم يخطر له قط أن هذا يعنيه. الآن يعرف أن الأمر لا يخص سواه.

تذكَّر ترقيات حُرِم منها بلا مبرر واضح، وأناسًا قطعوا صلتهم به فجأة، وهمسات كانت تلاحق خطوه في ممرات الأرشيف وطرقاته، وأحاديث تُبتَر بمجرد وصوله. انتابه الندم لأنه لم يستقصِ حقيقة الأمر في حينه، ثم عاد ليحمد الله على أنه لم يفعل، فتلك كلها من صنف الأشياء التي «إن تُبدَ لكم تسؤكم».

لكن ماذا يمكن لهؤلاء أن يأخذوا عليه؟! طوال حياته لم يكن له أي نشاط يُذكر، لم يعتد حتى الجلوس في المقاهي والأماكن العامة إلا نادرًا. من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل. باستثناء أغنيات عبد الوهاب التي اعتاد سماعها في أوقات بعينها، كان الصمت هو اللغة الوحيدة المسموعة في شقته،

منذ طلاقه. فإشراقاته في معظمها تدور في عوالم انتفت فيها فكرة الصوت أو الكلام، وعقله – مع التدريب المتواصل - نجح في عزل ضجيج الشارع وأصواته.

ما يضايقه مؤخرًا أن الأصوات التي باتت تلاحقه باستمرار، تستهزئ بقدرة عقله السابقة على نفي كل ما يهدد طمأنينته إلى الخارج.

قام الرجل المستغرِق في الكتابة من مكانه، ووقف على الرصيف لإجراء محادثة هاتفية، إلَّا أن هذا لم ينطلِ على مراد، إذ أقنع نفسه أن المكالمة عنه، خاصة حين اختصه المتحدث بنظرة جانبية خاطفة. أيبلِّغ الرجل عنه؟! أمِن المحتمل أن يُلقَى القبض عليه في التو واللحظة؟! تساءل مراد، وقبل أن يخدعه عقله باستسخاف هذا الخاطر، جَرَّ قدميه مبتعدًا دون أن يحاسب على قهوته.

تسارعت دقات قلبه، واهتزت ركبتاه أكثر، رأى نفسه في شارع مدرسته القديمة ببيوته المتقشفة وأرضيته الطينية، ثم في طريق مزنَّر بأشجار باوباب عملاقة، يضيئه قمرٌ منير، قبل أن يحل ظلامٌ تام ويتهاوى جسده ليرتطم رأسه بحجارة الرصيف.

تجمع المارة حوله لإفاقته، وهرع صاحب محل صغير لتركيبات العطور حاملًا زجاجة «آزارو» مقلدة، بخَّ منها بخة خفيفة تحت أنف مراد، وطلب رجلٌ ثانٍ من الآخرين الابتعاد، كي لا يزداد اختناق العجوز فاقد الوعي. أفاق مراد على أصوات متداخلة وهمهمات مشفِقة، فلم يدرك أين هو! أول ما خطر له أن الغرباء استباحوا عزلته، ثم انتبه إلى أنه في شارع وليس في حِمى شقته.

مد أحد المتحلقين حوله يده في جيبه، والتقط محفظته، ظن مراد أنه سارق، لكنه لم يقوَ على الاعتراض. فتش الرجل في المحفظة، وخرج بالبطاقة الشخصية. قرأ العنوان المكتوب فيها، وسأل إن كان وقت أحد المتجمهرين يسمح بمرافقته لتوصيل مراد إلى منزله!

تطوع أحدهم، ومعًا، أعاناه على النهوض وأوقفا عربة أجرة عابرة. سيطر عليه شعور بالغرق، أو بالأحرى بالطفو فوق الماء ووجهه لأسفل غارق وحده. كاد الصداع يشق رأسه، وتزاحمت عليه أفكار متسارعة، لم يفلح في القبض على أي منها. بدت ضجيجًا مكتومًا، بلا صوت لكنه يحمل كل إزعاج الضجيج الصاخب.

بينما يصعد به الرجلان السلالم صوب شقته، فكَّر مراد في أن إنقاذ العالم مرهون به ومعتمد على قدرته على المقاومة ونشر ما استبصره والتبشير به. ابتهج قلبه لمجرد تفكيره في أن يعرف الآخرون الطريق إلى تلك البقاع الأصلية الواقعة خلف حدود الواقع الضيق.

أمام الباب، حين حاول أحد الرجلين مد يده في جيب مراد لإخراج المفتاح، أبعد هو اليد الغريبة بحدة، وفتح بنفسه على الرغم من ارتعاش جسده بكامله. ارتبك في مدخل الشقة، لم يرغب في أن يدنس أحد عرينه الخاص، ومع هذا أخبره هاجسٌ خفي أن عدم الترحيب بالمتطفلين على عالمه خطيئة كانت لَتُغضِب أمه لو عرفت بها. لطالما كانت مضيافة ومرحبة بالغرباء وعابري السبيل. تذكر فجأة أن جدته خديجة، على العكس من أمه، لطالما حذرته من الغرباء وعابري السبيل، فلم يعرف ماذا عليه أن يفعل.

حرك يده بتردد كأنما يدعوهما للدخول وهمهم بما لا يفهمه هو نفسه، لكنَّ الرجلين انشغلا بصاحبة البيت التي حضرت لاستطلاع ما يحدث، مع أنها تحرص عادة على تجاهل مراد كما يتجاهلها ارتمى على أقرب مقعد، محاولًا التغافل عما يسرده الرجلان من أحداث ليس متأكدًا إن كانت وقعت فعلًا ام لا .

«طول عمره بِراوي ومقطوع من شجرة. زمان كان بيزوره ابن عم عايش في إسكندرية كل كم سنة مرة».

قالت المرأة، فبرقت في ذهن مراد ذكرى عابرة لرفيق طفولته أثناء لعبهما معًا في مرابع الطفولة، وخايله خاطر عن بدايات هوى، سرعان ما قُمِع، بين ابن العم وصاحبة البيت. عرض عليها الزواج قبل سنوات، فطلبت منه أن يكون زواجًا عرفيًّا كي لا تُحرَم من معاش زوجها الراحل، فغضب ابن العم العاشق، وانتهت قصة الحب سريعًا كما بدأت، ليرتاح مراد من عبء مشاهدة شخصين تنطلي عليهما تلك الخدعة السرمدية. مع الوقت، بات يشعر بأن الحب الرومانسي أكثر المشاعر سخافة، ومع هذا أو ربما بسببه، تذهله قدرة تلك العاطفة الهوجاء على تحويل أشد الناس تعقلًا إلى سفهاءٍ وحمقى.

لا يعني هذا أنه قد اعتبر قريبه هذا حكيمًا يومًا، هو بالأحرى لا يكاد يتذكر وجهه، ولا يعرف لماذا كَفَّ عن زياراته المتباعدة له! أَحَدَث هذا بعد انتهاء علاقته بصاحبة البيت أم أنه داوم على الحضور على الرغم من كل شيء! لم يعد لدى مراد إجابات عن أي سؤال. يملك فقط جبالًا من أسئلة لا تطمع في أجوبة.

عاد إلى التفكير في حماقة الحب والمحبين، وقال لنفسه إنه لو لم يقع في غرام وردة، لَكانت حياته وحياتها أسعد وأسهل. لماذا كان غِرًّا إلى هذه الدرجة؟ سؤال آخر لا يملك إجابة له.

خرج الجميع وانغلق الباب خلفهم، خفتت أصواتهم رويدًا، وانسحب هو إلى غرفته حيث تمدد فوق السرير، غير قادر على تحديد إن كان ما مرَّ به منذ الصباح أضغاث أحلام أم كوابيس واقع!

نام لثلاث ساعات، ثم استيقظ بصداع يكاد يشق رأسه. اشتاق إلى أوقاته القديمة الخالية من الصداع والإرهاق وانقطاع النَّفَس. لم يعد بإمكانه تخيُّل مثل هذه الحياة، وساءه أنه كالآخرين، لا ينتبه إلى النِّعمة إلَّا بعد زوالها.

على غير عادته اشتهى أن يأكل طعامًا دسمًا يُذَكِّره بالأيام الخوالي، لكن مطبخه ليس فيه سوى بواقي بائسة من مأكله اليومي. ومع هذا دخل يبحث، متمنيًا وجود ما يسره. في الحقيقة لم يكن الأمر حدسًا، إذ يتذكر أن صاحبة البيت في غمرة الضجة المصاحبة لعودته برفقة الغريبين، ذهبت إلى شقتها، ورجعت بطبقٍ مغطى بورق قصدير. نسي هذه التفصيلة بمجرد حدوثها، لكنه صحا من نومه وهي حاضرة كواحة نضرة في صحراء ذاكرته.

طريق الماء

أجد نفسي سائرًا بمحاذاة بحرٍ بلا نهاية؛ الزرقة تغمر كل شيء ورائحة اليود تُعبِّق الجو إلى جواري يمشي شاب أتعرف فيه على بطرس؛ زميلي في المدرسة الثانوية يبدو عازمًا على القيام بأمر جلل أسأله عن وجهته، فيرد بأنه ذاهب في طريق البحر لتوصيل رسالة إلى قوم الأعماق. أندهش وأسأل مجددًا: أي قوم هؤلاء؟ وكيف السبيل إليهم؟ فتأتيني الإجابة من صديقي وقد نفد صبره: أقصد الناجين، يمكن لمن يرغب الالتحاق بهم، والطريق إليهم يبدأ

بالسير على الماء. وقبل أن أستفسر استفسارًا إضافيًّا انطلق بطرس صوب البحر، وخطا على الماء. خُيِّل إليَّ أنه يقول: لم أعد ضعيف الإيمان، سوف أثق ولن أخاف، سوف لن أرتجي النجاة. لكن حين أصختُ السمع لم أجد رفيقي ينطق بأي شيء رأيته فقط يحثُّ الخطى بتصميم دون الالتفات خلفه وقفتُ على اليابسة أتابعه، ورغبتُ في أن أناديه طالبًا منه العودة، لكن صوتي انحبس ووُئدت كلماتي بداخلي راح جسد بطرس يتضاءل بابتعاده التدريجي، وشعرتُ بألمٍ وأسى لا طاقة لي بتحملهما، ثم هبَّت ريحٌ عاصفة، عتَّمت الرؤية لبرهة، وحين هدأت لم يكن هناك أثر لبطرس. اصطخب الموج ثم استكان، وحلقت طيورٌ بيضاء، لا حصر لها، قبل أن تحط على الماء. مع استكانتها التالية على الطيران، انتقلت سكينتها إلى قلبي، فغمرتني خِفَّة خلَّفت في نفسي سعادة ممزوجة بالأسى.

مدن الأعماق

ثمة نهر يكاد ماؤه يبدو ساكنًا كأنما لم يعرف الانسياب والجريان من قبل، وعلى ضفته البعيدة بساتين كروم وبرتقال، أما هذه الضفة فيحتلها بستان موز لا يعرف الناظر إليه بدايته من نهايته، وتصافح مياهها الرقراقة الأغصان المرنة لأشجار صفصاف معمرة.

يركض المراهق الذي كنته بين أشجار الموز، محاولًا عبثًا تفادي أوراقها العريضة. تقودني صرخة وشهقة أخيرة إلى الوجهة الصحيحة، لكنني أبلغها متأخرًا. ألمح رأس بطرس يرتفع فوق سطح الماء بحثًا عن شهقة الحياة، ثم سرعان ما يغطس لأسفل كأن قوة هائلة تجذبه للغرق. يتحرك الماء في موضعه في دوامة من دوائر متداخلة، قبل أن يعود للسكون. أصرخ وألقي بنفسي في الماء في محاولة يائسة لإنقاذ صديقي وزميل دراستي، تهتز أغصان الصفصاف الملامسة للنهر، وتغيب الشمس مؤقتًا خلف غيمة داكنة، فيبدو العالم كأنما صفصف عليَّ أنا السابح باستماتة وعلى بطرس الغارق.

أغطس كاتمًا تنفسي لثوانٍ، قبل أن أُجبَر على رفع رأسي مرة أخرى دون أن أجد لبطرس أثرًا، كأنما قد ذاب في المياه. شيئًا فشيئًا يحضر آخرون للمساعدة في عملية البحث. أغادر النهر الساكن، وأسير بين أشجار الموز لأجد كتاب كيمياء الصف الثالث الثانوي الذي كان بطرس يذاكر فيه قبل قليل. أحمل الكتاب وأتصفحه، فتنبسط أمامي أماكن ومدن عامرة أسفل الماء. ليست مدنًا غارقة، بل مشيَّدة في الأعماق؛ بناها أسلاف وجدوا أنفسهم مغمورين بالماء دون سابق إنذار، وكان عليهم أن يتكيفوا مع عالم لم يألفوه من قبل. غرقوا في البداية، فتحررت أرواحهم، وبتحررها استفاقوا على حقيقة أنهم قطعوا أول خطوة على طريق التكيف مع العيش في الأعماق، ففي الغرق نجاة.

على الرغم من انبهاري بما يتراءى لي بين دفتي كتاب، لطالما بدا لي مستغلقًا ومضجِرًا في السابق، ألقيتُ به بعيدًا. خفتُ من إغواء مدن وبِقاع الأعماق لي. خَمَّنتُ أنها ما أغوى صديقي بطرس؛ ابن قس كنيسة السيدة رفقة، وأغراه بالغرق، أنها ما صور لي، بمجرد النظر إليها، أن الالتحام بالماء، الطريق الوحيد الموصل لها.

كنتُ قد تركتُ صديقي، على ضفة النهر منكفئًا على الكتاب، ودخلتُ البستان المملوك لعائلتي لإحضار بعض الموز المدفون في كومة تبن والمتروك هناك كي يطيب وينضج في حرارتها. لم أكن قد قطعتُ سوى خطوات قليلة حين خطفت ضجة بالخارج انتباهي، قبل أن أستوعب أن ما سمعته لتوه كان صرخة متحشرجة بصوت بطرس الذي اعتاد زيارتي من وقت لآخر، لنستذكر معًا دروسنا على النيل.

على الرغم من محاولات البحث المستميتة، لم يُعثَر على الغريق، ولمحتُ سطح النهر يستحيل كريستالًا مصقولًا وينغلق على من فيه، فيما أقف أنا على الشاطئ محاذرًا أن ألحق بالماء في تحوله. أنفصل عن عالم تجلياتي، وأجد نفسي في المسافة الفاصلة بينها وبين الواقع، فأتذكر أنه كان لديَّ صديق اسمه بطرس في المرحلة الثانوية، لكنه لم يغرق، فلا أعرف من أين جاءتني هذه الإشراقة الأشبه بالذكرى منها باستبصاراتي كما آلفها.

* * * * *

8

صباح جديد يتسلل إلى عالم مراد، الجالس إلى طاولة السُّفرة ساهمًا. ينسكب ضوء النهار تدريجيًّا في الشقة، فيما يفكر هو في أنه صار يفضِّل المنطقة المغبشة بين النور والعتمة، فالضوء الصريح يؤذي نفسه وعينيه، وبُهْمَة الليل تعبث باتزانه، أما المسافة بينهما، فتتيح له الطفو في حالة من الوَخَم والخدر المُسَكِّنين لآلامه ومخاوفه.

يفتح دفتره الرمادي، يتأمل الحروف والكلمات، فيُهيَّأ إليه أنها مكتوبة بلغة مستغلقة على فهمه. يحاول تذكُّر ما تعنيه كل كلمة، فلا يفلح. يجرب تحويل الحروف إلى أصوات، فتخذله قدراته. يتذكر تيهه وتلعثمه في بدايات تعلمه القراءة بكُتَّاب جدته خديجة. كان ينظر إلى الحروف المُدوَّنة على اللوح، فيشعر بأنه فقد القدرة على الكلام. تنطق جدته كل حرف أكثر من مرة، وتطلب منه أن يكرر وراءها. يفعل ما تأمره به، لكن ما إن تستدير إلى طفل آخر، حتى يجد ذهنه صفحة فارغة.

حين يئست منه، أرسلته إلى كُتَّاب منافسها في القرية المجاورة، ظنًّا منها أن صلة القرابة وتدليلها المبالَغ فيه له منذ مولده هما ما يمنع تعلمه منها. هناك أيضًا واصل تلعثمه وارتباكه، وإن بدرجة أقل، لأن خوفه من الشيخ عبد الرحمن كان يحفزه على فعل كل ما يستطيع للهرب من عقابه.

ينظر له الشيخ نظرة زاجِرة، فيستظهر مراد من الألف إلى الصاد. يبدو الخوف له محفزًا سحريًّا، يقبض على يده ويأخذه إلى أرض جديدة يصبح فيها حتى لأشد الرسوم عبثية معنى. إلى تلك اللحظة، مثَّلت له الأبجدية مجرد رسوم، وظلَّت كذلك لفترة بعد إجادته القراءة والكتابة وحفظه للقرآن. لطالما مال عقله إلى تحويل كل شيء إلى صور وأشكال ورموز، حتى ذاكرته بصرية بالأساس؛ تزوره الذكريات منبثقة من مشاهد ومناظر غابرة، ثم سرعان ما تكتسي بمذاقات وروائح ومشاعر وأصوات معينة.

يحدق أكثر في الإشراقات المُدَوَّنة في دفتره، فيكاد لا يتذكر متى دونها ولا يعرف كيف ولماذا تجلَّت لشخصه الضعيف! يزعجه ألم خافت ولكن متواصل في صدره، فيتشاغل عنه بالتشبث بقَشَّة الذكرى. يستعيد كُتَّاب الشيخ عبد الرحمن، فتغمر روحه نسمة منعشة، لا تنبعث طبعًا من شيءٍ ذي صلة بالحفظ والتعلم أو التوجس والارتباك، إنما من استحضار السَّمْت المُلُوكي لهناء؛ ابنة الشيخ، في جلستها الصباحية في شرفة بيتهم تشرب شايًا بالحليب وتقرأ في مجلات الموضة والمنوعات. يجلس هو بجوار زملائه على الحصير ناظرًا إلى أستاذه المتربع فوق مقعد عريض مغطى بمفرش ملون، ومختلسًا النظر، من وقتٍ لآخر، إلى الجمال الغافل عن ما حوله والمنغمس في تصفح مجلات بأوراق مصقولة. تملأ شمس الضُّحى الشرفة، فيشعر كأن هناء تتحول إلى كتلة من ضياء. اعتادت أن تخرج من عالمها لثوانٍ تنظر فيها نحو والدها وتلاميذه في جلستهم، بفناء البيت بجوار شجرة اللَّبَخ، تحت السَّقِيفَة المُجهَّزة كيفما اتفق، والمُعرَّشة بعنب تتدلى عناقيده جاذبة طيورًا تنقر حبَّاتها في الضحى أو نحلًا يطنُّ حولها في الظهيرات الحارة. يتذكر مراد كيف كان عالمه يشرق إن حدث وابتسمت له هناء أو نادت عليه كي يشتري لها شيئًا من البقَّال في أول الشارع أو كي يتسلق أعمدة السَّقِيفَة ويزحف فوق عروق سقفها كي يقطف لها أطيب عنقود عنب، وقد تملكه الفخر لأنها اصطفته من بين الجميع للقيام بهذه المهمة الجليلة، المرة الوحيدة التي وَدَّ فيها لو انشقت الأرض وابتلعته، كانت حين كاد يقبض على حرباء بدلًا من عنقود عنب، ولولا أنه انتبه في اللحظة الأخيرة إلى أن الكتلة ذات الخضرة المشوبة بالصُّفرة ليست سوى ذلك الكائن المتلون الذي لطالما حذره أهله منه، لكان قد لُدِغ منها. انتفض وقفز من فوق السَّقِيفَة غير عابئ بما قد يحدث لعظامه الغضة، وحين ارتطم بالأرض لم يتمالك نفسه، وانخرط في بكاء يليق بالطفل الذي كانه. ركضت هناء من جلستها إليه، اطمأنت على أنه لم تُكسر ساقه، ومسحت دموعه، قبل أن تساعده على النهوض وتنحني لاحتضانه لبرهة، اقترن بعدها ملمس الساتان بالسعادة والنعيم في ذاكرته للأبد. كان ثوبها من الساتان الأخضر الزيتوني؛ وهكذا ظلَّ كلما أغمض عينيه هانئًا في لحظات اطمئنانه المتباعدة، تلون فضاء مخيلته بأخضر الزيتون الممزوج بنعومة الساتان.

قال لجدته خديجة مرَّة إنه سيتزوج من ابنة الشيخ عبد الرحمن عندما يكبر، فضحكت ووعدته بأن تزوجها له إن حفظ القرآن بسرعة. صدقها غير آبه بفارق السن بينه وبين هناء. في ذلك الوقت، كان يظن أنها ستظل كما هي حتى يراكم سنواته ويلحق بها. بعد خمسة أعوام من وعد جدته الضاحك له، اصطحبته معها لفرح هناء. كان قد حفظ القرآن تلاوةً وتجويدًا وتوقف عن التردد على كُتَّاب أبيها، واقترب من نهاية المرحلة الابتدائية في المدرسة. بدت له العروس جميلة، ككل العرائس، لكنَّ مساحيق التجميل خصمت شيئًا من ذاك البهاء القديم المرتبط في ذهنه بفتاة أحلام سنواته الأولى، تلك التي كانت تحيل بسمة منها أو تربيتة على الرأس يومه من البؤس إلى السعد.

عندما أَحَبَّ وردة لاحقًا، خُيِّل إليه أنها تشبه هناء على نحو ما. كانت أبعد ما تكون عنها من ناحية لون البشرة والشعر والملامح، لكن جمع بينهما هذا الأثر السحري والغامض الذي يخلِّفه الجَمَال في النفوس. كان ينظر إلى وردة فيمتزج سروره وولعه بأسى لا سبيل إلى فهمه أو تفسيره لطالما رغب في أن يكون إياها، أن يرى كل شيء حوله بعينيها، وألَّا يكون له وجود أو كيان خارجها حلم بالاتحاد بها بلا أمل في الانفصام عنها أبدًا، وتعذَّب من إدراكه بأن حلمه هذا ضربٌ من المُحال، حتى لو تزوجها وعاشا معًا إلى آخر يوم في حياته.

لطالما شعر، في حضورها، بأنه في الجَنَّة، لكنها كانت دومًا جَنَّة منقوصة ومقيِّدة. اعتاد أن يتكلم بلا انقطاع، كأن في وردة تعويذة قادرة على حل عقدة لسانه وإذابة ميله الفطري للصمت، ومع هذا ظل عاجزًا عن البوح بكل ما يعتمل في نفسه نحوها.

كان يشتهيها اشتهاءً عرف معه أنه لن يرتوي منها أبدًا أدرك على نحو مبهم أن شوقه لها لن يهدأ أو ينطفئ، غير أن ما زاد من وجعه الغامض تيقُّنه من أنه غير جدير بها، حتى لو آمنت عائلته بأنها أقل منه على كل المستويات.

يستيقظ من نومه مذهولًا، ومتسائلًا عن سر أحلامه المستجدة، وعن كيف عادت وردة إلى حياته بهذا الوضوح والإلحاح ولو عبر هذا الباب الخلفي! يلفت نظره أن الماء والغرق يمتدان من أرض تجلياته ويقظته إلى جغرافيا نومه. يجلس كل صباح، إلى طاولة السُّفرة شاردًا، لِما لا يقل عن ساعتين، ثم يتحامل على نفسه لتحضير فطور سريع يجبر نفسه على أكله كي يتمكن من تناول قهوته.

والآن، فيما يجلس محاولًا تجاهل انتشار ضوء النهار فى الشقة، يأتيه صوت جدته خديجة مرددًا جملتها الأثيرة، في كلامها معه، وهي رائقة البال: «المعجزات تحدث فقط لمَن يؤمن بها».

تلح عليه جملة جدته خديجة من جديد: «المعجزات تحدث فقط لِمَن يؤمن بها».

حتى حين تاه عقلها، ولم تعد قادرة على تمييز مَن تتعامل معهم، وصارت مجرد كومة عظام تجلس فوق فروة خروف قديمة تتأمل الشارع عبر الباب الموارب، كانت تتعرف عليه وحده حين يجلس بجوارها، خلال زياراته للقرية. يتحدث إليها، فتجيبه، كما لو كانت جدته مثلما يتذكرها في سنوات طفولته وصباه وشبابه. تسأله عن أخباره، وتحكي له شيئًا ما عن وردة. كانت تصر، لسببٍ لا يفهمه، على الإشارة إليها، فيتعجب كيف تتذكرها وتتذكر حبَّه لها، في وقت كفت فيه عن التعرف على بقية أفراد أسرتها. اعتاد أن يرد عليها كيفما اتفق، متجاهلًا ألمًا يعتصر قلبه، وعندما تخبره بأنها ستنادي أخته ليلى كي تجهز له الغداء، ينتبه إلى أن عقلها سافر من جديد إلى أرض التيه والتجوال على الدروب.

* * * * *

9

يرقد مراد على فراش غير مرتب في غرفة يراها مربعة بشكل يزعجه. يفكر لماذا لا تكون الغرف مثلثة أو دائرية! المثلث محكوم بـأضلاعه الثلاثة، ولن يُشعِره بالغربة مثل المربع والمستطيل، لأنه يعشق الرقم ثلاثة، أما الدائرة فحنون لخلوها من الزوايا والحواف الحادة.

يتمنى فجأة لو عاش حياته كلها في باطن دائرة. يؤلمه عموده الفقري، فيتحامل على نفسه ليقوم من رقدته.

يجلس على المقعد المجاور للنافذة، فلا يبصر أغصان الجهنمية المثقلة بالزهور، تتبدى له بدلًا منها حديقة. يراقبها، فيلفت نظره جسدٌ متكوِّمٌ على مقعد مُثبَّت أسفل شجرة، زهورها متساقطة على الأرضية وعلى الرجل النائم. يضايقه هذا. يرغب في إزاحة الزهرة المستقرة على طرف المقعد، بحيث تكفي حركة واحدة غير محسوبة لإيقاعها. لطالما أزعجه رؤية أي شيء على الحافة أو أي شكل غير متناسق على نحو صارم. أبعد النائم يده عن وجهه، فخمَّن مراد أنه في أواسط أربعينياته. شيءٌ ما في شفتيه المزمومتين وجبهته المقطبة أشعر رائيه بأن ثمة ما يزعج نومه على الرغم من خضوعه التام لسلطانه.

يدقق مراد في ملامحه، فيضاعف هذا من ضيقه. شعورٌ مبهمٌ بالانقباض يسيطر عليه. تظهر امرأة بثياب البيت فجأة ويتبعها رجل يوقظ الغافي ويسحبه خلفه. لا يعترض ولا تبدر منه كلمة واحدة. يتلفت حوله فقط مذهولًا، تتوقف نظرته قليلًا عند المرأة الحريصة على الوقوف على مبعدة. يدوس الزهور البرتقالية وهو يتحرك ببطء خلف الرجل.

تهب ريح خفيفة تُحرِّك أغصان الشجرة، فيطير غراب مبتعدًا، وينتبه مراد إلى أن الشجرة تكاد تخلو من الأوراق، ومع هذا تقف صامدة في البرد، محملة بعشرات الزهور اليانعة. يتذكر أنه رأى واحدة تشبهها من قبل، يغيب عنه أين صادفته! أكان يلمح قمتها من على كوبري ٦ أكتوبر، فوق النادي الأهلي؟ أم أنها كانت في حديقة الأورمان؟!

لا يهتم بالإجابة. يمد رأسه ويلصق جبهته بزجاج النافذة يكاد برد الخارج ينتقل إلى عظامه، فيحن إلى إحساس الاستيقاظ في شقته، وإلى طقوس إفطاره وإعداد قهوته. صار يكره الطعام. لا يكاد يأكل شيئًا. ينظر إلى السور العالي الممتد خلف الشجرة والمحيط بحديقة المبنى، تلفت نظره كُوَّة فيه. يتساءل عمَّا قد تتيحه من مناظر لمن يتلصص على الخارج عبرها؟! هل ستمنحه المنظر نفسه المترائي له هو من غرفته في الدور الثالث؟!

يقول بصوت عالٍ: «قد يرى المتلصص الشارع والفضاء الفاصل بيننا وبين المدرسة الواقعة في الجهة الأخرى، لكن سورها سيمنعه من رؤية الجزء البادي لي من مرمى كرة القدم. يتيح لي النظر من أعلى إمكانية أكبر للرؤية. ننظر إلى المشهد نفسه ويرى كل منا شيئًا مختلفًا وفقًا لموقعه. يمنحني موقعي رؤية أشمل، لكن موقع المتلصص سيجود عليه بتفاصيل عصية عليَّ. أرى أشجار المانجو - في الجهة الأخرى من السور - كاملة، لكنه يرى جذوعها بتفصيل أكبر».

يصمت مراد ويلتفت حوله. لا يعرف عمَّن يتحدث! لا أحد يختلس النظر من كُوَّة السور. يشعر بالدوار. ثم يتكاثف الضباب أمامه ويغيم العالم. تخبو الشجرة المزينة بالزهور وتتلاشى أشجار المانجو، ويتبدى له بيت قديم محاط بحديقة. يدعك عينيه، ويظن أنه يتفرج على مسلسل تاريخي. لم يرَ هذا النمط المعماري في القاهرة من قبل، ومع هذا يشعر بألفة تجاه المبنى وحديقته، خاصةً حين يهز النسيم شجيرات الياسمين والفاكهة.

يلاحظ قمرًا يتوسط السماء، يغيِّبه الغيم حينًا ويعاود الظهور حينًا آخر. لا يفهم كيف تسارع الوقت من الصباح إلى المساء هكذا؟! ثم ينسيه الأنين هذا الخاطر. أنين خافت يتصاعد رويدًا، ثم يخفت مجددًا، ينبعث من الداخل. يُخيَّل إلى مراد أن الأنين ينبثق منه ومدموغ بصوته ونبرته.

تتكاثر عليه الأوجاع، يشعر بنيران تندلع في جوفه. ترتفع حرارته ويضيق تنفسه. وتنغرز مسامير لامرئية في رئتيه.

يعرف أن ما بدأ يختبره فجأة مرتبط بالأنين المنبعث من البيت، ويكاد يرى نفسه شيخًا راقدًا فوق فراش مكسو بالسندس والاستبرق، يعاني سكرات الموت وحده. تتجسد له غرفة موسومة بآيات الثراء تحتضن لحظاته الأخيرة، فيما هو في برزخ بين عالمين، كلاهما ثقيل الوطأة؛ أحدهما مفروش بكسر الزجاج والآخر مغمور بشوك ينغرس في القلب مباشرةً.

يشعر بوجود رفقة، يحاول فتح عينيه فيُفَاجَأ بغمامة صفراء تمنع عنه وضوح الرؤية. يستشعر خطوًا يقترب منه، ثم يسكن كل شيء. تنغرز المسامير مجددًا في صدره ويُهيَّأ له أن رأسه يغلي من فرط السخونة. يحدس بحركة قريبة من جديد. تنضغط على وجهه يد قوية بقماشة رطبة. لا يتأكد إن كانت يدًا حقيقية أم لا، لكن روحه تنسحب منه، يكاد يشعر بمفارقتها لجسده. يتضاعف الألم ويستحيل التنفس، فيما يمنعه وهنه من الصراخ أو حتى الأنين. يسكن في النهاية. تشمله طمأنينة لطالما افتقدها. يتذكَّر صندوقًا كان بجواره، ثم تخبو الذاكرة بدورها. يغرق في ظلامٍ تام.

ينتفض مراد من جلسته مذعورًا. لا حديقة ولا ليل ولا ظلام ولا بيت قديم في الجوار. يجر المقعد خلفه مستأنِسًا بضجيجه. يعيده إلى مكانه السابق، ويصعد للرقاد على السرير مجددًا.

كم يشتاق إلى نعيم العيش في شقته، محاطًا بدفاتره وأشيائه الأليفة. يشتاق حتى إلى كائناته غير المرئية وحضورها غير الملحوظ لغيره في الغرف والمطبخ والحمَّام. يسأل نفسه: أين غابت؟ ولماذا لم ترافقه إلى هنا؟

يتذكر فجأة النائم على المقعد أسفل الشجرة المزهرة الخالية من الأوراق، يود لو تحامل على نفسه واتجه صوب النافذة لمعاينة مكانه الفارغ منه، لكن دقات قلب مراد المتسارعة وألم مفاصله يجعلان الفكرة محض حماقة.

يخطر له أنه لمح الرجل من قبل، ربما تقاطعت خطاهما في شارع ما، أو صادف أحدهما الآخر في أحد ممرات حديقة عامة، حيث اعتاد مراد أن يتشمس في الفترة التي تلت تقاعده مباشرة. ربما التقت أعينهما للحظات، ثم أشاح الرجل الأصغر بوجهه بعيدًا وهو يداري ارتباكه.

تمر في باله أشجار المانجو وملعب كرة القدم في فناء المدرسة التي تراءت له، قبل قليل، في مواجهة نافذة غرفته، فيتذكر مدرسته الإعدادية، في القرية المجاورة لقريته. يستدعي مشواره اليومي إليها ومنها، فتغيب الكثير من تفاصيل دربه، وتلمع نجمة واحدة في سماء ماضيه المعتمة: ذات صباح بارد وقف أمام «الكانتين» يلتهم ساندويتش فول بالطحينة والليمون والكمون لم يتذوق في حياته طعامًا أشهى منه.

أقنعتْ بقية الجيران بأن وجوده بينهم صار خطرًا عليهم وعلى صغارهم. بعد أن كانوا قد نسوه تقريبًا - في ظل توقفه عن الخروج إلَّا للشديد القوي - عاودوا التطفل على حياته. طرقوا بابه واحدًا بعد الآخر، كل منهم بحجة مختلفة. يكلمونه وعيونهم تتفحص وجهه أو تتجول للإلمام بتفاصيل الشقة خلفه، فيما هو يقبض على الباب كي يحافظ عليه مواربًا، لا يكشف عن مكنون الداخل.

قبل أن ينشغل عنه الجميع بشؤونهم الخاصة، اتصلت صاحبة البيت بابن عمه المقيم في الإسكندرية محاولةً إقناعه بحجزه في مصحة للأمراض العقلية. توقع مراد أن تقدم على هذه الخطوة من نظرتها له يوم عاد به الغريبان آخر مرة غادر فيها شقته. أخبراها أنه تهالك في الشارع، ولم يشفِ غليلهما حين سألاه عن اسمه وعنوانه، فاضطرا لإخراج بطاقة هويته من جيبه. كاذبان ككل من أوقعه حظه العاثر في طريقهم خلال السنوات الأخيرة.

يدرك مراد أن المرأة موقنة مِن أنه مَن حرَّض ابن عمه على رفض فكرة الزواج العرفي ودفعه إلى قطع علاقته بها، لكنه يحمد الله لأنها لم تتمكن من حث رفيق طفولته على أن يزج به في مصحة هي إلى السجن أقرب. كان متأففًا عندما زاره في شقته لإخباره أن لا وقت لديه كي يضيعه في مهاترات وزيارات دورية للقاهرة. بتجهم طلب منه أن «يداري أموره» وأن يتصرف كالآخرين، فلم يعرف مراد ماذا عليه أن يفعل بالضبط. لأول مرة تنتابه السعادة لأن شقيقته ليلى لم تتزوج من ابن عمهما هذا.

«لا ريب أنها ما أغرقت نفسها في النيل إلَّا للهرب من هذه الزيجة!»

يباغته هذا الخاطر، فيهز رأسه راضيًا دون ذرة واحدة دون تأنيب الضمير أو الاسف .

* * * * *

يغمضُ مراد عينيه فيرى طيورًا بيضاء تلتقط زهور ياسمين من شجيراتها، وتحملها في مناقيرها، ثم تحلِّق في سماوات غير مألوفة له. تبتعد حتى تكاد تغيب عن ناظريه، ثم سرعان ما تعود أسرابها وتطلق سراح الياسمين ليتطاير في الهواء، قبل أن تحط على أشجار ليمون مزهرة، تجاور بيتًا متقشفًا مطليًّا بجير أصفر باهت.

يسعى إلى اختراق خميلة الليمون بعينَي خياله، فتتراءى له شابة سمراء بعينين عسليتين وشعرٍ أبنوسي طويل، ترتدي قميص نوم شفافًا، يزيد من ألق بشرتها الخلاسية. ترنو نحو الطيور الملتجئة إلى أشجارها وترتسم على شفتيها المكتنزتين بسمة حلوة. يخطر له أنه يعرف التماعة العينين هذه، وتَذَوَّق هاتين الشفتين وروى عطشه يومًا برضاب هذا الفم الشهي، لكنَّ التفاصيل غائبة عنه عصية على ذاكرته. يوقن فقط أن روحه تألف هذه الروح وتحن إليها.

تداهمه فجأة ذكرى تبدو منبتة عن أي سياق مفهوم له، لكنه يهجس بأنها تخص حكاية قديمة له مع هذه الجميلة، إذ يتجلى أمامه وجهها ذو السلطان على قلبه، مع تغيير يكمن في اختفاء الابتسامة واحتلال الحزن للعينين بعد أن انطفأ بريقهما الأخاذ. رآها واجمة، تكتم دموعها، ورأى نفسه شابًّا يدير لها ظهره، ويغادر القرية بلا وداع أخير. انسحب دون شرح أو إيضاح، على عادة الجبناء. اكتفى بشجاره مع أمه وَجَدَّته وقطيعته لهما على أمل أن ترضخا لرغبته في الزواج من محبوبته. لم تعلم هي شيئًا عن طريقته الطفولية في الضغط على أهله، لم يصلها منه سوى الصمت والغياب، في حين أتته أخبارها تباعًا؛ العبوس الذي صار لصيقًا بها، اقتراب خطبتها لأحد أقرباء جَدَّتها، ثم زواجها منه في حفلٍ رُتِّب على عجل. حين عاد إلى كنف العائلة، تجنبت أمه أي إشارة إلى وردة، لكن جَدَّته خديجة كانت تتحدث عنها، من وقتٍ لآخر، بعفوية مدعاة، مادحةً جمالها الذي نضج وطاب مع الزواج، أو متغزلة في طفلتها الصغيرة حين اصطحبتها معها لأول مرة إلى القرية، وهي في عمر السنتين. لم تعد وردة، في نظر الجَدَّة خديجة، تلك الفتاة الفقيرة الأمية التي تشكل خطرًا على مستقبل حفيدها. أما أمه، فكانت غارقة في تلك الفترة في أحزانها على هروب ليلى وزواجها من غريب لا يعرف أحد أصله أو فصله. من حسن حظه وسوئه في آنٍ، أنه لم يصادف وردة، بعد زواجها، قط خلال زياراته المتباعدة لمنزل عائلته.

مثلما برقت هذه التفاصيل في السماء الغائمة لذاكرته بلا مقدمات، استحال الغيم اعتامًا فجأة، لتضمحل الوجوه التي زارته لتوها، ويغيب كل شيء يخصها. يعود مراد صفحة بيضاء؛ جنينًا غافلًا عن ذاته وهويته، جاهلًا بما سبق واكتسب من معارف، وبما سبق وارتكب مأ خطايا. يشعر بخفة مباغتة. تطير به روحه إلى أرضٍ أبعد وزمنٍ غابر. يجد نفسه وحيدًا على فراش أفخم، يكاد يشعر بنعومة الديباج والاستبرق، غير أن الألم يمنعه من الاستمتاع بهذا الملمس المحبب إلى نفسه. يعرف أنه وحده تمامًا، فالبيت الذي كان عامرًا حتى الأمس، صفصف عليه. غادره الجميع ظنًّا منهم أنه مريض بالطاعون وخوفًا من احتمالية أن ينتقل المرض المستشري في المدينة إليهم.

لا يعرف إلى أين ذهبوا، ولا يهمه الأمر. يفكر في الحديقة الغَنَّاء للبيت، يستعيد منظر أشجار الأترج والإجاص والنخيل والأعناب، ويستحضر عبير الياسمين في امتزاجه مع شذا الريحان والورد الجوري والنرجس والآس، فلا يواسيه هذا، يتمنى لو يصل إلى خاتمته سريعًا عوضًا عن هذا الألم الذي يفتك بأحشائه.

يبتهل في سره إلى الله أن يخلصه من العذاب، يغمض عينيه ويواصل تأوهه، يغيب عن الوعي لبرهة، ثم يستفيق شاعرًا بوجود شخص آخر في الغرفة، يخيل إليه أن أنفاسًا مضطربة لاهثة تتناهى إلى سمعه، وأن هناك من يجلس على طرف التخت. هل عاد أحد الخدم للاعتناء به؟! يسأل نفسه دون أن يكترث بالجواب.

يتمنى فقط لو تخمد النيران المشتعلة في رأسه وأمعائه. يحس بخطوات تقترب منه، ثم كأن يدًا ما تضغط بخرقة هل عاد أحد الخدم للاعتناء به؟! يسأل نفسه دون أن يكترث بالجواب.

يتمنى فقط لو تخمد النيران المشتعلة في رأسه وأمعائه. يحس بخطوات تقترب منه، ثم كأن يدًا ما تضغط بخرقة فوق أنفه وفمه، يشهق رغمًا عنه وتقبض يده على شيءٍ صلب، فيتذكر صندوق جواهر لم يكد يفارقه على مدى سنوات، يندهش كيف لم يستولِ عليه أحد الخدم الفارين بحياتهم، قبل أن ينسى كل شيء وتخمد حركته ويتلاشى وعيه .

كأن خمود جسد هذا الشيخ المريض يمد مراد في رقدته ـ على فراشه بشقته ـ بالطاقة، يجد نفسه يستفيق عمًّا قبل، لا يسعده هذا لإدراكه أنها مجرد حلاوة روح. يحاول استعادة اللحظات الأخيرة في حياة الشيخ الأقرب إليه من ذاته، فتعتم بصيرته، وتهجره تجلياته، على الأقل في ما يتعلق بهذه المسألة.

يعود خياله إلى البيت المتقشف وخميلة أشجار الليمون المجاورة له، فيُفاجَأ بأن الطيور قد هجرت أعشاشها، ولا يلمح الخلاسية ذات العينين العسليتين في الشبَّاك. يراها خارجةً من بين الأشجار وفي يدها سلة ليمون أصفر مبلل بقطرات ندى، تتبعها طفلة بنظرة تائهة متسائلة وشعر يتطاير خلفها بفعل النسيم الخفيف. يبتسم لمرآها وتتعلق عيناه بفتحة ثوبها حيث يبين مفرق نهديها، يتذكر اسمها: وردة. ثم يخبو كل شيء وتحلق روحه بعيدًا مصحوبة بغمامة من شذا الليمون.

القاهرة فبراير ٢٠١٨

شنغهاي سبتمبر ٢٠١٨